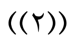


الوجود في بر الأجلاف

....



قصة

الوجود في بر الأجلاف

أنا موجود فعلا

ولكن هل أنا أعيش؟ لست أدري..

أحمد مصارع

الوجود في بر الأجلاف

تأليف: أحمد مصارع

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ٠٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

الفصل الأول

(١)

لقد عشت الحياة عميقا، نعم عشتها عميقا، وبكل أبعادها، حتى أنني تعودتها، تعودت فيها على إطلاق العبارة الشهيرة، فلتحيا يا صديقي: أنا لا أحب ولا أكره، مبدأ فيه التناقض، ولكنني اعتقدت بأن هذا المبدأ هو حد للعدالة، ومهما كانت وجهة نظري فيه، إلا أنه لا يوجد أحد في هذه الدنيا إلا ويكره أن يكون وجوده فيها يمر كمجرد حدث عابر، الكل يبحث عن الخلود الدائم، ولكن كيف يمكن لذلك أن يحدث، فكل الأشياء التي تنتشر معلقة على الحبال، لتجف تحت الشمس تذوي وتذبل، ثم تميع أو تذوب وتتحلل، فما الذي سيبقى؟!.. إنها حياتي، حياتي التي تضعضعت

فيها كثيرا، بل أقول بكل بساطة، لقد فقدت فيها جذوري كنبته برية نقية، وتقطعت من شجرة كبريائي شروش الكبرياء والشعور بالذات، وهي جذور مغروسة بعمق يغذيها بئر عميق ما الحياء، الأمر الذي يضطرني باستمرار أن أعدل من روائز حياء الكرامة شخصية المرتفعة لأنني صرت أشعر بنفسي كأنني مجرد دودة، بل وأقل من دودة تعيش بدون حرية في الحركة، وأين؟!.. بين طيات حذاء عتيق موحل، حتى تعودت على ما لا يمكن التعود عليه، لقد ألقيت في عجينتي الأولى خمائر سجن مريع ودائم، فرغني من كل أشكال الحيوية، انه عنكبوت امتص دمي، تركني مهملا في زاوية مظلمة ومهجورة فلا أقدر على فعل أي شيء، حين يكويني الحر ويلسعني البرد، يعتصرني الجوع ويشردني هائما والفقر يزدريني، ما أشد صفاقة الفقر.. الأمر على مرارته عادي.. ما هو غير عادي هو في اعتيادي عليه.. في أن أرضخ له متجمدا تحت الدرجة الصفر، يفزعني فيه ذلك الفراغ الكبير الشاحب، وحين أكون برفقة أسئلة يائسة خاوية من كل معنى، كمادة الكون السوداء،

فقد نحدسها أحيانا، بيد أنها لن تظهر في هذا القرن أو ذاك، وهي أسئلة تكفي لأن يتجمد الدم وينجلط القلب، إنها المادة اللاصقة والخفية عن الأنظار، فهي تشكل أربعة أخماس الكون، بينما الحقيقة العلمية والمطلقة، كما يسميها البعض لا تشكل سوى الربع من حياتنا الراهنة، أقاوم فيها من عمق يأسي، عبثية الحركة من الحركة، والمشي لمجرد المشي، والخروج من سجن البيت إلى الفراغ المهول خارجه، ففي البيت يلازمني البؤس والحظ العاثر إلى درجة العدم، حيث لا أحد سيطرق بابي ولو بالصدفة أو بالخطأ، أما خارج البيت فيختلط الشعور بالضياع مع الاغتراب، وهو اغتراب سببه انقطاعي عن الجذور لمدة جيل بأكمله.

قبل العاشرة صباحا أهجر الفراش مرغما، هذا ما كنت أفعله بوعي والأرجح بدون وعي، لقد عشت الليلة الماضية، أحاول تذكرها بصعوبة.. ترى هل عشتها حقا بحرية؟.. ربما؟.. ثم أتساءل على النحو هل حدث ذلك حقا؟!.. أتساءل بحق؟ أذكر بصعوبة أنني التقيت بالأحبة في ليلة أنس وطرب، كان أغلب الساهرين يظهرون

معرفتهم بي، أحس ببعض مشاعرهم نحوي، والحقيقة التي أعرفها هي أنني أراهم أو أتعرف عليهم للمرة الأولى، وأشك بقدرتي على معرفتهم في اليوم التالي، فإذا لم يتكرر حضورنا معا فلن أستطيع نقل أي أحد منهم إلى المستوى الداخلي، كل ما أحتاجه هو القليل من التفاعل ليحدث شيء آخر، الأشكال والأسماء تتكرر بشكل محدود.. فيا للغرابة كيف أجد نفسي وحيدا؟!. الكذبة كبيرة جدا.. مجرد عواطف كاذبة.. لماذا نكذب ومما يهرب كل واحد من هؤلاء السكارى ؟!..لم أخرج بعد من حالة الانغلاق الخفي، الذي يتجسد في شعوري بحالة العزلة، وحتى السجن، وهو سجن للرتابة لا يتجدد بسهولة، وفي لحظة ما اكتشفت أني ليس سوى لحظة عذاب، وعذاب ما بعده عذاب فكل من التقيت به وغالبا بالصدفة وسوء الحظ وما قرره القدر في غفلة، ولكنها تهرب الآن مني بطريقة قميئة، وعلى شكل صدمة، بل وضربة مطرقة مؤلمة، فيها الصداع والشعور بالخيبة المرة، وحتى الغيبوبة وانعدام الشعور، ودون أن أدري، هذا لا يهم أبدا، لقد تحولت

إلى آلة تعمل لمجرد أن تعمل، لذا فأنا أشتغل بدون وعي، إنني أبدو حقا مثل شخص مسلوب الإرادة، وسيان أن أكون أو لا أكون.. أنا يقظ أو أنا سكران وحتى في حالة كوني مجرد شخص يحلم، لا أدري لماذا يتكرر ذلك في كل يوم؟.. بطريقة لا أقبلها في عمق ذاتي، انطلق ناعسا نحو محلي المتواضع مجازا، أغادر المنزل الذي أسكنه لوحدي، لقد استأجرته قريبا من منزل أهلي، إنني أتحمل تكاليفه لأنني أريد أن أعيش فيه لوحدي، أتصرف به بحرية وبشكل مستقل، فرغم أنني محافظ وتقليدي مثل بقية أفراد المجتمع إلا أنني لم أستطع التكيف في بيت أهلي، أشعر بأنني مقيد ومكبوت غالبا، وبصراحة فان السبب الأهم هو في إدماني على شرب الكحول، فأنا لا أستسيغ شرب الخمر في منزل يملكه الوالدين، حيث أشعر فيه بأنني مجرد لاجئ إنساني فيه، فأنا لا أمتلك الحق في تحدي إيمانهما بحرمة الخمر، وهو بالنسبة لهما يمثل لعنة، لعنة ما بعدها لعنة، ومن غير المعقول أن أرد على معروفهما وقت الشيخوخة بإحلال اللعنة على المنزل، بل والظهور أمامهما

بمظهر الكافر، أو الفاسق، وتلك هي صورتي المرسومة في مخيلتهم، منذ أيام طفولتي الأولى، وذلك في الصف الخامس ابتدائي عندما أخبر معلم التربية الإسلامية واسمه (باتر دوك كما أذكر)، أخبر أبي وأمي، بأنني إنسان وجودي، وأنني في درسه أتساءل بل وأشكك بوجود اللّه، أردد السؤال الذي لا معنى له (أين اللّه؟).. أرفض الصلاة ولا أحب تعلمها والخضوع للّه، بل وأضحك باستهزاء من اللذين يتعبدون عن طريقها، كان يعتبر نفسه وهو الشركسي كما لو كان خالي، لأن أمي كانت شركسية، فكانت تشعر بالخوف علي، بينما كان أبي العربي يقول بكل ثقة، (تلك مرحلة طارئة ستمر بسلام، فلن تستمر)، وكان يردد مقولته الشهيرة، من وحي أرسطو (إن الجراء حين تتعلم العض فإنها تعضض كل شيء)، بدون وعي وقصة السؤال: أين اللّه؟!.. ستتكرر دائما، وعندما يكبر الولد سيختلف الأمر كثيرا، ولكنني الآن تحت رعايتهم وعطفهم البالغ، رجلا كهلا، منتوف الريش، وربما مقطع الأجنحة، فهو لا يقدر على الطيران عاليا..لا يجوز له أن

يعيد السيرة الأولى بعد عدة عقود من الغياب، وهو فشل كبير، بدليل أن معظم الأخوة وأبناء جيلي كما يقال، استقلوا عن أهاليهم وصار لهم فرع مستقل من الأسرة والمنزل والعمل، بينما عدت إليهم كما لو كنت ابنا معوقا، فإذا ما تحديت معتقداتهم صرت معوقا وعاقا وهذا جحيم لا يحتمل، أما لماذا أفتح محلي صباحا، وأشرب القهوة فيه فالسبب بسيط للغاية، فأبي الشيخ المسن يصحو من نومه فجرا ليصلي، ويقرأ القرآن لساعة أو أكثر، ثم يتابع نشرات الأخبار، ثم يخرج في جولة قصيرة ولكنها دائرية الشكل، فلا بد له أن يلاحظ غيابي وقد يتهمني بالكسل والتراخي، وعدم الرغبة بالعمل، فلذلك أتحامل على كسلي وفترة راحتي في كل أيام الأسبوع لأكون مخالفا لتوقعاته، ولنشرب القهوة سوية ونتحدث في كل شيء إلى أن تدب الحركة في الحي الذي نسكنه وحين ينطلق إلى أمكنة متعددة فلن يراني حتى صباح اليوم التالي.

عندما كنت طفلا كان والدي ينصت لجهاز الراديو من الإذاعة البريطانية، بي بي سي، ثم يذهب إلى

عمله في وقت مبكر، ورغم تعدد النشرات التي تطورت من مونت كارلو، إلى صوت أميركا، ومن ثم سويسرا فألمانيا وكندا، فقد ظل يندفع نحو عمله بنفس الطريقة، إنني أذكر أبي أيام الراديو الأول ذو الإطار الخشبي، والد يود أو الترانزيستور على شكل مصباح أديسون، والأنتين الطويل المغروس كنبتة متسلقة في جوف زجاجة ماء على سطح المنزل القديم، كهوائي نباتي يثير دهشتي وتساؤلي، في وقت كان فيه من الصعب إنارة المنازل، ومعظم الأحياء مظلمة مع فوانيس الكاز والنفط الخانقة، ومدا فئ الحطب اللا هبة في اتجاه واحد، بينما يحصد الموت من يشاء وبخاصة أيام الشتاء القارص وسنوات الثلج، وأذكر تجمد الماء في الأنابيب والحنفيات، وأغطية الخيش التي يضعونها فوق الأنابيب حتى لا تتجمد، ودقائق الانتظار ريثما يذوب الثلج ويسيل الماء المتجمد من شدة البرد، وبعد صب الماء المغلي، ليصنع شاي الإفطار للأطفال أو قهوة الصباح المبكرة للشيوخ.

لماذا تلاحقني ذكريات من الطفولة البعيدة؟.. لماذا أراها منطبعة في شاشة ذاكرتي كلما صحوت من نومي صباحا؟.. ثم لا أقدر على الإفلات من تهاديها سوى في زحمة النهار، وبعد أن أشرب كمية كافية من القهوة المرة، وأدخن خلالها سجائر كثيرة!..

هذه الذكريات العابرة تتكرر، لأنها منقوشة على صخرة الذاكرة الطفولية الصلدة، وقد لا أنساها أبدا، كيف يحدث ذلك؟ لست أدري؟.

أقول لنفسي أحيانا، قد يكون ذلك بسبب الكهولة، وربما مظاهر الشيخوخة واقتراب لحظات الموت، فكل موت لابد له من تمهيد، وما هذه الذكريات سوى عمليات تمهيد لحلول لحظات الاعتراف، حيث يحضر المكان القديم بقوة لتكون المحاكمة الابتدائية قبل حضور الموت، انه النزع الأخير.. ربما.. لن أنسى أبدا بل ولن أغفر لأبي أنه هو من ذكرني بتقدم العمر، وبأن الشيب قد خط حروفه البغضاء والبيضاء في شعري الكستنائي اللون.. وهذا دليل على سوء قدري إن لم أتدارك نفسي وأصنع شيئا كالمعجزة،

شـيء مـا سـيأتي ربمـا كلمـسة سـحرية، ولـكنـه بـالحق يشك بأنه لن يأتي أبدا، فعلام الانتظار؟..

كنت أردد مع نفسي بشكل أبله:

-: لا تخرج الأقمار بدون هالاتها.. لا قمر بدون هالـه.. الهالة هي قمر مرافق وهـي القمـر الحقيقـي.. مـن يـرافقني بحـق هـو مـن يخلقـني ويـصنعني.. بـل ويـضفي علـي سمـة الوجود.. لأنه سيرسم لمـن يـرى بـصعوبة بالغـة تلـك الحـدود التي لا تزول، حدودي النافرة.. حدود وهـم للوجـود الزائـل حتما.. ولذا لن أفهم أبدا وحتى لن أعود.

كـان الحوش القديم الـذي ولـدت فيـه مدهـشا، لأنـه كـان يـتغير مـن فـترة لأخـرى، وكـان تغـيره سلـسا بـدون طفـرات، شـكله مـستطيل طويـل، وفي وسـطه مربـع مكشوف وواسع، وببوابته الكبيرة تقابل الجنوب، ولذا كان شماله مرتفعا بعلو طابقين، وجنوبـه منحـدر، ومـن على شرفة الطابق الثـاني يمكننـا رؤيـة نهـر الفـرات علـى بعد مئـات الأمتـار، وحـين يفـيض النهـر الـذي كـان بحـرا فيما مضى، يصير النهر الهادر على بعـد عـشرات الأمتـار مـن التـل الـذي ينتـصب عليـه الحـوش، يمكـن للمـرء أن

يطرق على البوابة الخارجية من خلال قبضة معدنية على شكل يد تحمل كرة معدنية، على قاعدة رنانة، كان للبوابة قوس من القطع الناقص أو الاهليلجي، وخشبه من الخارج مغلف بصفائح معدنية وعليها مسامير معدنية نافرة، حدوة الفرس، وللباب مفتاح حديدي ثقيل الوزن لا يحمل بالجيب، ومن الداخل فهناك مزك عبارة عن سيخ حديدي طوله بحدود المتر، فان أقفل من الداخل فلن ينفع فيه أي مفتاح كان، فقد كان على ارتفاعه الشاهق بدون أي نافذة أو كوة، فكثيرا ما كانت تخيفني لحظات العودة آخر الليل، وبخاصة في الشتاء البارد حيث الأبواب مقفلة، والنائمين متدثرين تحت الأغطية السميكة، فلن يسمع أحد لا طرقات الباب ولا أصوات الصراخ والاستغاثة، فكم من مرة اضطررت لتسلق الجدار الجانبي المجاور للباب، فأمسك بصعوبة بالحجارة النافرة وأضع أقدامي حافية في الحفر الصغيرة، وبصعوبة بالغة أجد نفسي قد قبضت على أطراف السور العالية، وقد أخفق فأسقط معها من الأعلى إلى الأسفل، وحين أنجح بالصعود وأتنفس الصعداء فأكون كمن

امتطى سنام بعير من غير سرج، ثم أبدأ بالزحف كثعبان عجوز بحثا عن أخفض نقطة لأتدلى منها ثم أسقط بعد تردد وخوف بأمان على الأرض.

الآن أستطيع أن أقرر حقيقة مع نفسي، بأن أبي وان كان يصادفني أفعل ذلك خلسة، فانه لن يفكر أبدا بالاعتراض، على الأقل لأنه يخشى وقوع صدمة عنيفة على رأسي، أو حلول عقدة ما، بسبب اعتراضه لي، وهو الشيء الخطير الذي قد ينعكس يوما في نفسيتي، انه شديد الحرص، فالتساهل في هذه المواقف وحتى التجاهل المطلق، خير من المواجهة العنيفة التي لا تنمحي آثارها مدى الحياة.

بالمثل كانت تفعل أمي، وبعد أن أدس نفسي داخل اللحاف القطني السميك، وكأنني قد أصبحت آمنا على نفسي من أي هجوم كنت، أسمعها بكل هدوء، وبصوت يشبه المشاورة وهي تقول لي: يا بني مازلت صغيرا، اسهر ولكن لا تتأخر كثيرا..

ثم تشرع بتمكين الغطاء بحنان قلق وأعترف بخطأي بصمت، ولكنني أراهن على نسيان الجميع في اليوم التالي في زحمة الحياة وقسوتها.

كانت الوحيدة، ووحدها حبا بتي، إذا ما قبضت علي نازلا كاللص، أو فتحت لي الباب الكبير، باب القلعة العتيقة، وحدها من يجعلني أدفع ثمن جهدها بفتح الباب بعد منتصف الليل فهي تتكلم معي بشكل متسلط وحاكم:

-: (يوال)..، أين كنت؟.. (يا حوام).. وتأتي في (أنصاص) الليالي كالسارق؟..

لولا أنها تحاصرني بقوة، كأنني فأر صغير أمام قط عجوز، ما كنت أرد عليها أبدا، ولكنني مضطر للتقدم نحو فراشي، فالوقت متأخر وليس هو الوقت المناسب للمحاكمة الطويلة، ينبغي أن أقول لها شيئا حفظني إياه جدي عبد الله:

-: لقد كنت أشاهد فيلما سينمائيا في سينما جدي عبد الله، وجدي عبد الله يسلم عليك..

جدي عبد اللّه، هو أخوها، ولذلك أصبحت تستمع باضطهادها لي فقط من أجل أن تسمعني أتكلم معها كساعي البريد، فأنقل لها سلام أخيها الأصغر والمدلل عندها، وعندها فقط تسمح لي بالعبور ولكن ليس من غير توبيخ ووعد لها بأن لا أعود ثانية إلى البيت بعد منتصف الليل، وكما أعتقد فان من يكثر الطرق على الباب، فلابد أن يفتح له، لأن الأشباح ذاتها تخاف وتنزعج من شدة الطرق، فتفتحه كي يعم الهدوء والسكينة، لذلك فقد اتفق الجميع ولست أدري كيف حدث هذا، وهو أمر لا يخلو من الفكاهة، حين أوصتني حبا بتي بأن أحمل المفتاح الكبير معي حين أسهر وأعود في الليل متأخرا، وحين أعود بعد منتصف الليل تكون جدتي نائمة، وغرفتها تجاور الباب الكبير، وهي الضحية الأولى التي تنزعج من طرق الباب ليلا، فقبل سنوات مضت كانت تفتح الباب بهمة ونشاط، وكان هذا يشعرها بأنها هي صاحبة السيادة على الجميع، فتسمع كل من يأتي متأخرا خطابا، وكأنها تأمر الجميع بإطاعة أوامرها الصارمة، لقد أجبرتني على

حمل المفتاح، وهو مفتاح الحديدي ثقيل الوزن وكأنه مطرقة، وهو يصلح كسلاح يدافع به الإنسان عن نفسه، ففي طريق عودتي للمنزل عبر سبعة دروب وعدة حارات وأكثر من خربة مهجورة وموحشة يسمع فيها وحي الجنيات ويرى فيها حركة الأشباح، من خلال السكون المريع والظلام الحالك، الأمر الذي يجبرني على النظر خائفا بحدود ما تطأه أقدامي، بعيدا عن الظلال القاتمة والمخيفة، مجرد مائتا متر أعبرها بصعوبة بالغة، تتقلص مسافتها لتصير كالبرزخ، ويستعر زمنها حتى يصير كزمن الجحيم، كان ذهابي لمشاهدة عدة أفلام عن المغامرات السينمائية، بينما عودتي مغامرة حقيقية.

أحيانا أصحو مع الفجر، فقد كان الفيلم الدرامي عنيفا ،أو مخيفا ، أو تراجيديا محزنا وقد أوشكت مثانتي على الانفجار فأركض قافزا فوق الدرج، بحثا عن الراحة في بيت الخلاء وخاصة في أيام الشتاء المربعانية، وبعد أن أتنفس الصعداء لأنني بلت في اللحظة الأخيرة، وأنظر بعيني الناعستين إلى بخار البول وهو

يصعد أمامي، من شدة البرد الانجماد فأنظر بكسل وطمأنينة إلى باحة الحوش، ففي كل مرة أرى بوضوح حبا بتي العربية مع نانتي التركية، وهما تتجاذبان أطراف الحديث بهمة ونشاط، وبينهما (منقل) الفحم أو الحطب المشتعل، وبدون أي ضوء غير ضوء النار، وبقايا ضياء الفجر أحيانا، وعلى المنقل، توجد دلة قهوة مرة، وجزوه قهوة تركية، وحديث لا ينقطع فيما بينهما، لعله عن الأحفاد والأبناء، والحظ والصدفة وربما القضاء والقدر.

كان الحوش القديم مؤلفا من طابقين، في جزئه الشمالي العالي، ففي الأسفل خمس حجرات، وفي الأعلى حجرتان وشرفة طويل، فالشرفة العلوية على امتداد الحجرات الأمامية الثلاث، بينما الغرف العلوية تعتلي الغرف الخلفية الداخلية بعد الشرفة، وذات يوم صعدت بصعوبة بالغة فوق سقف الطابق الثاني وكأنني في الطابق الثالث المرتفع، وفيه يمكنني أن أرى كل شيء، في الأفق البعيد، فأنا قريب جدا من الله، لأنني أشعر بالخوف من كل نسمة تهب علي أما إذا اشتدت

الرياح فسأخاف من أن تطوحني بعيدا كريشة في مهب الريح، وبخاصة في فصل الربيع، حين أعانق بحب تلك الأعشاب النامية على السطوح العالية جدا، وفجأة وجدت قطعة معدنية ملقاة عليه كخردة، كانت ثقيلة الوزن، كيف استطعت حملها معي والهبوط بها إلى الشرفة، لست أدري، حظ وصدفة وربما قضاء وقدر، ومن الغريب أن يحدث إسقاط على من يحبني بشكل قاتل ومريع، كانت حبا بتي أسفل الشرفة تتشمس، وهي واثقة من الجريان الطبيعي لمسار الحياة، حين كلمتها من أعلى الشرفة قائلا لها:

-: حباب، عندي قطعة حديد ثقيلة الوزن، سألقي بها على الأرض، انظري إليها..

لم تكلف نفسها عناء النظر للأعلى فالدنيا شتاء قارص، والمهم أن يتزود كل شخص من بلدتنا ببقايا ضياء الشمس، وأن لا يفوت أي لحظة دفء يصدر عن ضوء الشمس الباهت فالظلال باردة والظلمة شديدة البرودة، فلم تكن تعلم أن لما ستقوله سيكون له ثمنا فادحا، حين قالت لي بكل وضوح:

- ألق بالحديدة بعيدا..

حين ألقيت بالخردة من يدي، نزلت بالضبط كما تفاحة نيوتن، وأين على رجل حبا بتي، فوقعت الكارثة، فقد أوشك إصبع رجلها الكبير على الانقطاع لولا رحمة اللّه، وكنت قد تمنيت أن تتخطفني نسور الفضاء كجيفة، بعد أن سمعت صرخة الألم الفظيعة التي صدرت عن حنجرة جدتي العجوز..

-: أيها الجدي النطاح.. لقد شبعت من حليب المعزة الطيارة.. إنها أمك التي.. يوميا لا تكف عن عادتها بحشو بطنك من حليب معزة..

هل سيخنقني أبي؟.. هل ستتبرأ من أمي؟.. هل ستقطع جدتي رأسي وهي تهتز خيلاء بسيف جدي المعلق بالغرف السفلية إن كل شيء ممكن.. ولكن مالا أتصوره أبدا أن تموت جدتي وهي تصرخ أين هو؟.. أريد أن أراه قبل أن أموت.. لقد عرفت ذلك بعد فوات الأوان لأن هذا يعني أنني كنت ضحية رهان بين أمي وجدتي..

ليتني عرفت ذلك من أهلي، لكن أحدا منهم لم يخبرني مباشرة، بيد أنني خرجت من المنزل العصري

وهو منزل أبي الجديد، وكنت مختنقا، أو مكبوتا لا أقدر على العيش كما أحب وأشتهي، فلا اقدر على تناول أي جرعة خمر وقتما أحس بضرورتها، إلى أن تصادمت مع والدي لأول مرة في حياتي كلها، ولا أدري لماذا تكلمت أمامه عن حبا بتي والدته بكل صفاقة، فلم يعد يحتملني، لأنني كهل فلم أعد طفلا صغيرا يخشى عليه من أي عقدة كانت، ومن يدري اليوم أو غدا سيتم اللقاء في القبور بينه وأمه العظيمة، ومن شدة قهره مني ومما أقوله، وشدة قهري من هذا التاريخ والجغرافية والوطن، فقد اكتفى بالقول:

-: أنت حر، فاذهب إلى أي بيت تشاء، سأدفع أجرته.. المهم عش حيث ترتاح..

هذا ما حصل بالفعل معي، وقد خرجت إلى المنزل القريب، وكان يدفع إيجاره راضيا ولكنني حين علمت باللحظات الأخيرة الحقيقة من النزع الأخير لحبابتي وهي تسأل عني وهي تعبر عن رغبتها بأنها لن تموت مرتاحة قبل أن تراني وهي تعاني من سكرة الموت المقدس، أدركت حينها بأنني لست ولم أكن عبر حياتي الماضية

كلها، سوى ولد فاسد مدلل، بل وقليل التربية، وكما يقال بلهجة عصملية (أدب سوز) أو (مخ يوك).

لماذا لم أتصالح مع الماضي وأنا أعيش به؟!.. بل لماذا لا أعادي الحاضر الذي يعاديني بجلافة مقززة ومثيرة للاستياء؟!.. يبدو أن في الأمر تصالح أناني مع نفسي فقط، فالماضي ليس سوى أنا.. والمستقبل هو في العودة إلى أنا.. فأي مسخ غريب سأكون؟.. بل وما هو الثمن الذي يتوجب علي دفعه، انه ثمن يفوق قدرتي على الدفع، والتحمل، والانتظار حتى اللانهاية.. الجميع مازال وسيبقى حتى أغادر من جديد بنظرة استغراب وحيرة.. إلا إذا حدثت معجزة، وهذا أمر يستحيل حدوثه.. إنني كالمحتاج منذ عصور لامرأة تجمع أشلائه كبقايا البلور المكسور بل والمنثور في قارات العالم وهو مقهور.. مقهور.

عفوك أبي لن أعتذر كأب، ففي اعتذاري لك أراهم يريدون موتك وموتي، بل موت كل الأزمنة معا، لماذا يرفضون رؤيتي مجرد كائن حي بين ظهرانيهم؟!..

بالنسبة لهم أنا كالغريب.. إنهم يكرهون الغرباء.. لأنهم لا يحبون حتى أنفسهم.. ولا يجدونها إلا بالإنكار

الفـج والجلـف لكـل مـا يمكـن أن يكـون أو سـيكـون، إنهم أشعة يأس بغيض، تفـوق الـشمس في طاقاتهـا، إنهـم أشـرار بحق.. علقم مر يا أبي.. لا تتوهم أبدا أنهم ذات يوم سيحسون ولو للحظة بأنهم أصليون أو أبناء وطن له تـاريخ وحضارة.. إنهم مجرد أناس يبحثون عن مجرد لحظة حيـاة كيفما كانت ليس إلا؟..

أنا حر بما فيه الكفاية هكذا علمتني حيـاة الغربـة بعيـدا، وفي أوطـان بعيـدة.. بيـد أنـني لم أغـادر هـالتي الحقيرة، هالة الدلال الفظيع الذي عشته بـين أهلـي وأيـام كـان لمجـرد الوجـود وحتـى الـولادة مـاض وحاضـر وحتـى مـستقبل مـشرق..انـه الـدلال.. كانـت جـدتي الـتي رأت بعيونها وخيالها عدة قرون مضت، من أبيها وجدها ترانـي ولا أراها، فلأنني أنكرت حقيقة دوام الرؤية من الماضـي السحيق حتى الواقع الراهن، فأنا أسـتحق لعنـة الأجـداد، بـل ونكـران الأحفـاد..إنهـا معركـة أن أكـون.. كيـف يمكـن لي بعد ضياع وغربة وسجن أن أكـون؟!.. هـذا مـا جعـل جـدتي وقبـل أن تمـوت أن تنـادي علـي، وتحلـم بـوهم

يـائس أن أكـون بقربهـا حـين تمـوت في عـالم يحكمـه الأوغاد والأجلاف، في الحاضر والغربة.

لا ، لـن أتراجـع أبـدا ، تحـت وطـأة شـعوري، بـأنني مـسحوق و مـسجون، فقـط لأنـني موجـود مـن غـير تـاريخ وحتى إحداثيات تحدد موقعي في المكان، لأن كل شـيء تغـير فجـأة، فلـم أعـد أنـا هـو ذاك الـصغير المـدلل لـديها ولـدى أمـي أو أبـي أم مـاذا؟.. لقـد كـبرت، فهـل سـأتقبل حقيقتي هذه؟.. هل سأتراجع ؟..أم أتمادى في دلالي؟..

....

(٢)

في الـصباح، عنـدما تكـون الـساعة قـد تجـاوزت العاشرة بكثير، كـان سلمان الجمعة يفتح محله بتراخ وربمـا مـن غـير رغبـة، ومـا أن يـستقر قلـيلا ، فـسيأتي مسرعا نحوي، لنحتسي معا قهوة الصباح كما يسميها أو كذلك يتخيل، وأكون أثناءهـا ناعسا لا أكاد أدرك وقتها معنى وأسباب وجودي في المكـان والزمـان، أنـا لم

أعد أفرق الليل من النهار، لأن ليلي وحيدا بالأمس كان مجهدا للغاية، ليس من الخمر الذي نحتسيه معا فحسب، بل لأنه يهرب بعد منتصف الليل بقليل، مبكرا كعادته بينما أظل أنا لوحدي في كل ليلة ساهرا حتى الفجر، أكتب أحيانا وأرسم وعندما أسكر أذهب للنوم العميق.

تختلف كل ليلة عن سابقتها، غير أن كل النهارات تتشابه، وتتكرر بشكل روتيني معتاد، وهو ما يبقيني في حالة انتظار، طيلة النهار، ويبقى السؤال الأكبر عندي متى تغيب شمس هذا النهار؟

هاهو سلمان الجمعة صاحب محل الألبسة النسائية انه يقابلني في الطرف الآخر من الشارع، يطرق الباب كما أتوق، في قامته المعتدلة وبشرته السمراء، وحين يقدم لي يده الدافئة باستمرار ولن أنسى أبدا محاولته اليائسة كي يخفي جحوظ عينيه المحمرتين، ربما من الأرق والسهر ليلا، لكنه يحاول أن يرقب كل ما حوله برقة، ويسارع إلى خدمة من حوله بشكل سريع، انه متواضع خدوم، له فراسة في قراءة الانفعالات التي

ترتسم على وجوه الناس وهو كثير العتاب ولا تفارقه الضحكة سوى للحظات قليله.

ذات مرة وكنت أقدم له فنجان قهوة مرة معتقة قال لي:

-: من العار أن يقعد هنا، في هذا المحل شخص مثلك.. إنني أفكر فيك كثيرا..

ضحك من تذمري حين قلت له:

-: هذا هو حظي النحس.. إنني أستحق أكثر من هذا..

قال لي -: أنت تتحدث عن الحظ والصدفة والقدر، لو تعلم حالنا أنا وأخي.. لن تصدق أبدا وقد تعرفت علينا.. أنا وأخي وكل منا وحيد لأمه ونحن شقيقان من أب واحد ولكن من أمين قدريتين.. أبانا المشترك طاغية.. دكتاتور حقيقي.. أنا وهو نتمنى أن يموت ثلاثتهم في يوم واحد.. الشقاء حقيقي لأننا نعيش معا.. فأولادي خمسة، وأولاده خمسة، ولن تكون لنا حياة أبدا قبل موتهم جميعا، لنعيش نحن.. فنحن في كل صباح ندعو عليهما بالهلاك.. هو على أبي وأمه، وأنا على أبي وأمي..

كان ذلك مساء يوم جمعة، في وقت يندر فيه أن يتجول فيه الناس، وبخاصة في حي أغلب شوارعه فرعيه، حين دعاني قائلا:

: - اتبعني بعد نصف ساعة إلى المحل، فستجد عندي ما يسرك..

كنت مستغرقا ومهموما، حين أرسل أحد أطفال الجيران، يذكرني بالموعد، فرحت صوبه بتثاقل، لم يكن لوحده، كان هناك امرأة شقراء فاتنة، وترتدي بذلة وردية اللون، وما أن نظرت إليها حتى شعرت بالخجل، مما جعلني أشعر بنفسي ثقيل الظل عليها، وكأن لقدومي هيبة لا تحتمل، فحرت ماذا أصنع؟.. أين رأيتها؟!.. لحظات ثم تذكرت أنها هي.. نعم هي بالذات وقد صادفتها أكثر من مرة.. كنت أشعر بالسرور لرؤيتها، وأحس بجاذبية نحوها فقوامها رشيق وأنوثتها بضة ونافرة، وتبدو قوية الشخصية، ولأنني أشعر بالكهولة فان فضولي لمعرفة من تكون هذه الفاتنة على أضعف ما يكون.

قلت له محاولا الهروب مجاملة

:- أنت الآن عندك ضيوف فلتسمح لي..

قفز من مكانه مسرعا وأمسك بي

:- اجلس، سأقول لك الحقيقة.. إنها هي من طلب اللقاء بك..

ثم التفت إليها يلومها، فقال لها

-: قولي شيئا.. لا تخجلي مني.. أنتما الآن معا..

تفحصت جمالها بأدب حذر للغاية، كانت رائحة المكان تعبق من عطر ساحر، وهنا صار فضولي يكبر ويكبر، فأنا لم أفهم بعد شيئا مما يحدث.

تدخل سلمان قائلا لها بصراحته المعهودة

:- كم مرة رجوتني أن أدبر هذا اللقاء، لا تتصنعي، لا تخجلي.. أنت على حق، لقد عرفته أكثر مما حدثتني عنه.. انه يستحق كل ما تفعلين..

كان الخجل يهاجمها، دماء وجهها تزداد احمرارا، ولم تنطق بعد.

وفجأة هتفت بروح مرحة

:- نعم أنت على حق، قد يكون.. ولكن دعني أتأكد أنه هو..

جحظت عيناه ثم رمقها بنظرة ساخرة وقال

-: هل هذا هو وقت الألغاز و(الحزازير)، قولي له شيئا..

بعدما مرت لحظات صمت رهيبة، قال لها

– لا تحدثيني عنه بعد اليوم لأنه هاهو أمامك بلحمه وشحمه..

حين قررت أن تتحدث معي مباشرة، هادنتني فقد توقفت عن فحصي بعيونها، فخف سيل السهام الوامضة، التي كانت تخترقني، ودون أن تنظر إلي سألتني:

- أنا أعرفك حق المعرفة، بل وأقدرك كثيرا.. ألم تعرفني بعد؟!.

كانت ابتسامتها نضرة، وهي تنتظر أن أرد على سؤالها..

أطرقت ساهما أصطنع التفكير في شيء، فاصطدمت بجدار ذاكرتي المتهرئة، فأحسست بوحشة ضياع كبير، ولا من كوة نور في دهاليزها الدامسة الظلام، فقررت أن أتوسل إليها وهي تبدو أمامي كملاك طيب يستحق الاعتذار:

-: معذرة، سامحيني هذه المرة، لقد غسل مخي، فانمحت فيه كل الألوان.

ضحكت مني، وكأنني تلميذ يرد على سؤال معلمته بفكاهة..

علقت هازئة مني

-: الألوان؟!.. ما حاجتك للألوان؟ هل مازلت تحب الفن؟..

قلت -: نعم.. أما قلت بأنك تعرفينني حق المعرفة.. ويؤسفني أن لا..

قاطعتني حين قدمت لي سيجارة من علبتها الفاخرة، فتناولتها مسرورا، وهممت نحوها خفيفا لأشعل سيجارتها، تلك السيجارة المدللة بين أصابعها وشفتيها، كانت القداحة تصدر مع نارها الخلبية أنغاما موسيقية،

وكـان كـل شـيء بـض وينـبض بالحيويـة، والحـرارة الخفية، لكن كل هذا بهت كلمعة خفيفة أمام شعلتها المشرقة.

قالت: إن كـل شـيء يتغير وسيتغير حتما، أنا أيضا تغيرت ولكن لابد من القول بأنه لم يعد للثورة والثوار أي معنـى في هـذا العـصر.. ألـيس كـذلك؟..أم لا؟.. مـا لـذي استفدت فيه من الثورة وفكرها؟..

شـعرت بخيبـة قديمـة، لقـد جلـدتني بـسياط مـن حرير،أو ربما ألقت على باقة من الأزهار، وحين لاطفتها بالسؤال:

-: أليست الحياة ثورة؟.. أليست الحيـاة امـرأة مثلـك؟.. بـل الأهـم حـين لا يعـود للثـورة أي معنـى أو حتـى أهميـة تـذكـر.. هـل يـصبح امـتلاك الثـروة كيفمـا كـان هـو الهـدف الأعظـم لكـل النـاس.. أنـا لم أعـد مـع أي ثـورة كانـت ولكـنني ضـد امـتلاك أي ثـروة مهمـا كـان مصدرها..الملكية الفاحشة هي السرقة..

أجابت بشكل صارم

-: أنا لا أقصد الثورة.. الثورة من اللّه أو من الطبيعة.. الثورة التي حين تحدث فهي تحدث مصادفة... من فعل المصادفة وقد لا تحدث طيلة حياة جيل بأكمله..

سقط من كياني شيء عزيز، فرحت أنظر إلى صديقي سلمان بعيون خائبة، فتذكر ملل المكان ورتابة الزمان الذي نعيشه في كل يوم، فألقى بوجهها السؤال التالي:

-: لقد قلت أنك تعرفينه أليس كذلك ؟..

قالت – نعم أعرفه أكثر مما تتخيل.. فقط اسمع وانتظر..

حين نظرت إليه مستنجدا، كان قد تجمد في مكانه، وصار يتمنى أن تحدث معجزة ما.

كانت تشعر بالخجل حين أنظر إليها، وتنظر إلى وجهي، ولكنني كنت أشعر بالخوف من أنوثتها الرقيقة، ومن لحظات حياة غريبة، تنبض بالحياة، من مجرد وجودها ومن سحر عطرها الأخاذ..

ثم بصوت متضرع وودود قال

:- اصعدا إلى الغرفة العلوية لتكون خلوة بينكما.. أنا هنا

كانت علامة استفهام بحجم الكون ترسم نفسها على وجهينا سكنا للحظات في صمت مهيب فأحس سلمان بالحرج، ففي الأمر بعض عاطفية مزعجة، عاطفية لا يقدر على تحملها، ولكنه يحترمها ولأول مرة أقرأ في وجهه علامات حيرة بينة، فبعض المشاكل يصعب حلها لأنها لا تبدو مألوفة أو تقليدية معتادة.

وفجأة خطر بباله تجريب الوصفة السحرية، وربما أحس بضرورتها والحاجة إليها من ليلة الأمس حين تعانق نهار اليوم.

بكل ثقة أخرج من درجه زجاجة ويسكي، فملأ كوبا من الشاي وتقدم نحوي:

-: تشجعوا قليلا.. حسب خبرتي فقليل من الخمر سينعش القلب.. يطلق اللسان..

كان دواء سلمان فعالا، فسرعان ما سرى مفعوله، فانتشر الدفء في العروق الباردة، كما يفعل حطب الموقد المشتعل، في أمسية شتوية باردة.

قالت -: يا ثائر.. سنتحدث فيما بعد عن كل شيء.. لدينا وقت كثير..ولقاءات عدة..

لم أطمئن بعد، فقد أشعلت نار فضولي، لأعرف من هذه الفاتنة التي تزين المكان وكأنها نجمة من نجوم سينما هوليوود؟.. ماذا تريد مني؟.. من هي هذه الأرستقراطية الجميلة؟!.

كان سلمان ينظر إليها عاتبا، مندهشا من تصرفها الملتوي، ولكنه وجد طريقة ليفر فيها من الموقف الغريب، ومن سماع جمل غامضة بدون صراحة، حين قال:

-: إذا لم تصعدوا إلى الغرفة العلوية فسأخرج من المحل فأنا أريد منكم أن تتحدثوا بصراحة.. أنا لم أعد أفهم شيئا؟..

قالت له آمرة -: لن نصعد إلى غرفتك السرية الموبوءة، سنبقى هنا وبإمكانك البقاء معنا، ووجودك لن يضايقنا أبدا..

ضحك سلمان من ردها العنيف، وبرغم دهائه الخبيث مع النساء، بدا كمن يحاول التملص، و يحاول

الهروب من مشاهدة موقف مؤثر، صنعه بعناية ويتمنى له أن يقع..

قال -: هذا المحل محلكم.. أنا خارج منه وسأعود إليكم بعد قليل.. تصرفوا كما شئتم..

ابتسم وانفرجت أساريره، حين لم تمانع، قالت:

- عد إلينا بعد دقائق لا تصطنع التأخر..

هرول مسرعا، وحين أغلق الباب، شعرت بالخوف للحظات، فلم أعد أمتلك الجرأة للنظر إليها، وللمرة الأولى أحس بالموسيقى التصويرية في المشهد الغريب الذي يمر علين، فقد كان لحن (العاطفة)، للموسيقار العالمي (فاوستو بابيتي)، عن الحب والعاطفة التي نحتاجها تتسلل خفية، ورحت أتساءل متى انطلقت تلك الموسيقى؟ هل كان ذلك صدفة، أم أن سلمان كان محترفا في خلق الأجواء الملائمة، لقد خرج وقد تركنا في عزلة، وكان قد أتقن إخفاء محله خلف الزجاج الكثيف، حيث لا يمكن لأحد أن يرى من هم بالداخل، ليس مثل محلي المكشوف لكل نسمة عجاج تهب في الشارع.

التفت نحوها، تشجعت قليلا ثم سألتها:

-: ما قصة الحظ والصدفة؟..

نظرت إلي مشجعة، ثبتت عيونها العسلية في عيوني، أنفذت في قلبي سهام طمأنينة وكأنها أبر صينية، فأحسست بروحها تنفذ إلى أعماقي، شعرت بأهليتها، بل بقرب كبير منها، وبأسرع مما أتوقع قالت:

-: نعم، أنا هنا لأحسم قضية الحظ والصدفة.. ستفهم ذلك عن قريب..

قالت: يمنح الإنسان الحياة لمرة واحدة..

علقت قائلا: ولكن..

ابتسمت ثم سألت: لكن ماذا؟..

قلت: يمنح الإنسان الحياة لمرة واحدة ولكنه يجاور الموت فيها ما لانهاية من المرات..

هزت رأسها بأسى وسألت ثانية:- ثم ماذا؟.

قلت لها – ماذا لو أضفت إليها المفاجآت ولعبة القضاء والقدر؟.

قالت:- لم أعد أستغرب.. أستغرب أن أعرفك ولا تعرفني..

قلت -: وكأنني أراك للمرة الأولى؟!.

ردت بحزم

-: لا ، لقد رأيتني لعدة مرات، ولكنك لم تنبه لوجودي بين زحمة الناس الذين كانوا يأتون إليك

سألت: متى يا سيدتي؟.

قالت -: أيام خرجت من السجن..

كنت واجما ، مذهلا من صدمة مفاجئة ، أخرجتني بضربة قوية من لحظات حياتي في بحيرة راكدة ، فتماوجت دوائر أسئلة متتالية.

قالت -: لست ألومك أبدا ، فقد خرجت من السجن مذهولا ، حتى أنك بدوت تتلعثم كطفل يتعلم النطق لأول وهلة ، رأسك محني نحو الأرض، ولا ترفع عيونك لتنظر في عيون الناس من حولك، وهي معاناة حقيقية قد عرفتها من خلال أخي..

صمتت للحظات ثم سألت -: هل تذكر أخي؟..

لم تتركني أفكر قالت

-: أنا هاله أخت رفيقك بالسجن هشام..لقد حدثني عنك كثيرا قبل أن يموت.. بل لقد أوصاني أن أكون إلى جانبك بعد أن تخرج من السجن..

لم أتوقع أن أصدم بقوة هذه الصدمة، كيف تقدمت نحوها؟!.، فلم أدر كيف تجرأت على تقبيل يديها.؟. خنقتني العبرة ولا أدري وسط دموعي المنهمرة، كيف تكلمت؟!. ماذا قلت لها؟.. كيف رجوتها بتضرع أن تسامحني ؟. لقد انتصبت أمامي هذه المرة ليست كأنثى فاتنة من لحم ودم، ذات غرائز بشرية لذيذة، بل كصورة أسطورية عن الأولياء الصالحين.. كتماثيل عن القديسين والقديسات..لست أدري وقد يمضي وقت طويل لأدرك شيئا مما حدث.

قالت -: لقد عشت معظم حياتي كمتصوفة زاهدة عن ملذات الحياة، أو كراهبة في دير، إلى أن قررت العودة إليها هذه الأيام..لست أدري لماذا؟!.. لا أدري ما إذا كان الوقت مناسبا أم لا؟، لكن لابد من اتخاذ القرار المناسب، والاختيار، بل وحسم الأمر بشكل نهائي، وأمامي أسبوع فقط... فكر جيدا..

قلت لها -: يكفيني من المفاجآت والألغاز.. أنا لم أعد أفهم شيئا.. ينبغي أن تنظري لي كانسان، مجرد إنسان من لحم ودم.. ففي الحياة فان كل شيء يتآكل ويتهدم.. ولاشيء يبقى على حاله.. ولن أدري لماذا يحدث هذا مطلقا..

قالت: كفاك مزاحا، فالإنسان هو الإنسان ومهما عاش فانه لن يتغير أبدا.. والإنسان عندي أكثر ثباتا واحتمالا من أقوى الصخور النارية..

قلت -: ماذا تريدين مني؟.. قولي شيئا يعبر عن الحسم الذي تريدينه..

صمتت، كانت تتفحصني بعيون ذكية، وشيء من روحها البديعة يتسلل كالوحي، يحاصرني ويمنعني من الهروب، لقد كانت تضمني بنظرات حنان بليغ.

قالت -: أنا أريد أن أتزوج هذه الأيام.. سأتزوج بعد انقضاء هذا الأسبوع.

قلت -: هذا سيفرحني جدا.. أنا سأكون معك، سأرافقك في كل مراحل عرسك.. كوني متأكدة..هل

يمكنك تخيل مدى ما يتوجب عليه فعله إكراما لأخيك..

ردت -: أنا متأكدة من ذلك.. أعرف أنك ستفرح لي، ولكني غير واثقة بأنك ستكون معي..

قلت -: كوني على ثقة تامة بأنني سأكون معك بشكل مباشر..

قالت -: قلت معي بشكل مباشر

قلت -: نعم يا عزيزتي..

قالت -: أن تكون معي بشكل مباشر يعني أن تتزوجني..

ضحكت من خفة روحها، ولكنها أردفت:

-: أنا أتكلم بجد.. فقد يقع عليك الاختيار..

لم أعد أتحمل الصدمات، هذا يكفي لذلك قلت لها:

-: هذا مستحيل..

قالت لي -: يبدو عليك الغضب والانفعال.. فقل لي لماذا؟..

قلت لها -: لأنني متزوج.. أكبر منك سنا.. تستحقين من هو أفضل مني.. إذا أردت أن تكوني بجانبي، أو أكون بجانبك، فدعيني على الأقل أختار لك الشخص المناسب..هذا ما يهمني فعلا.. وهو واجبي بشكل دائم..

ضحكت مني، وكأنها تهزأ من طريقة تفكيري ثم قالت لي

-: لن أشرح لك كثيرا، فما بيننا يشرح نفسه بنفسه، فكر بالأمر بشكل جدي، فأمامك أسبوع واحد.. سأكون معك حين تطلبني..

أخرجت من جيبها ورقة وفيها قد سجلت بعناية، رقم هواتفها حيث تكون في ساعات النهار، دفعتها إلي، ثم قالت:

:- الأمر جدي للغاية.. لك أن تعتبرها مزحة ولكن عليك أن تتصل بي في أقرب وقت، لنلتقي، أفضل أن نكون لوحدنا.. جد المكان المناسب..

حين دخل سلمان محله مسرورا، شعرت بالغيظ منه، فما كان مني غير أن أقول له:

-: يا سلمان.. أيها الشيطان.. من أين لك أن تعرف هذا الملاك؟..

ضحكت هاله، كانت كهالة قمر مكتمل بديع، فقد أنهت بحق جولتها الأولى وقد حققت نصرا كاسحا، ثم وقفت كأنها ملاك يوشك على الطيران نحو السماء العالية، ثم قالت موجهة الكلام نحو سلمان

-: لا تنسى أن تأتيني بالأغراض التي أوصيت عليها..

-: أنا أنسى كل شيء إلا أغراضك.. أنت على ثقة من ذلك..

صافحتني بمودة وحرارة، لم تشأ مغادرة المحل سريعا، وكأنها كانت تعرف أن بعد غيابها سيحل الظلام، فقد هيجته بأنوثتها الصارخة، فلابد أن يبدأ التخبط في المكان الذي ستغادره وستثور أسئلة كثيرة، فمن سيجيب عليها؟.

(٢)

لم تبتعد عنا سوى خطوات حتى هاجمته بالسؤال:

- ما قصة الأغراض أيها الجان؟.. لماذا لم تخبرني عنها قبلا؟..

قال: أرنا شريط المنوعات التركية.. شغله.. لن أتحدث معك قبل أراه..

قلت:- سأعرض عليك أجمل الأشرطة، ولن تفر مني أبدا..

شغلت واحدا فاخترت منه أغنية لمغنية تركية مشهورة، كان الأغنية تبتدئ بجملة (كيم دردي كيم..؟..) — أي هم هذا الهم؟-..

لحظات ثم علق مبتسما بخبث: - هذه المطربة الرائعة تشبه كثيرا هاله..

قلت له -: هل تريد أن ترى هاله في شريط موسيقى كلاسيكي؟.

-: غير معقول أبدا..

من بين مجموعة أشرطة الموسيقى الكلاسيكية الكاسدة في محلي، أخرجت شريط موسيقى تحت عنوان (كلا سيكال اليجانس) للموسيقار (بول موريا)..

انتظر قليلا، وحين فوجئ بصورتها تتحرك وسط الطبيعة الجرمانية الخلابة، وسط القلاع البار وكية القديمة والبحيرات المتراقصة من الضياء والظل، والقصور الغافية وسط غابات الاخضرار، لم يتمالك نفسه فهتف مندهشا:

-: نعم إنها هي بالذات والصفات..أنت فظيع.. من أين حصلت على هذا الشريط.. أنا أريده وسأرسله لها غدا.. غدا لترى نفسها خالدة هناك في الجنة.. أقسم أنها هي..

أعدت الشريط إلى علبته، ثم قدمته له، فأسرع في القبض عليه ثم رايته يحتار ماذا سيصنع به، لكنه أودعه جيب سترته الداخلية، ثم قال:

-: اسمع ياصديقي ولا تذهب بعيدا.. خذ الأمر على محمل الجد هذه المرة.. أنا أعرف أشياء كثيرة وكنت أحسبك تعرفها حق المعرفة، فالعلاقة فيما بينكم قديمة

وأقدم بكثير من معرفتي بك أو بها.. أما عن هالة فهي أروع وأقدم الزبائن عندي، لأنها تدفع بسخاء ثمن كل شيء تطلبه مني من الثياب الفاخرة والتي أجلبها لها من بيروت، فأنا أسافر إلى لبنان خصيصا لأحضر لها ما تطلبه من الموديلات الحديثة..لا يمكنني أن أخسرها أبدا.. إنني لولاها فلا أساوي شيئا أبدا، وكل ما تقوله عن حظي مع النساء مجرد هباء، لأنها هي من يقف خلفي وفي الخفاء، ولولاها لما كنت أبدا..

-: حسنا، قل ماذا تعمل الآن.. حدثني عنها قليلا..

ضحك مني ورد بسخرية:

- أظنك تعرفها حق المعرفة.. إنها ليست بحاجة للعمل أصلا، ومع ذلك فهي مدرسة الرسم، ورغم أنها في العقد الرابع، فهي لم تتزوج بعد..أميرة عذراء.. وأظنها ستظل كذلك..

- أعرفها نعم.. إنها الصدفة أو الحظ.. كنت كلما رأيتها أتساءل من هذه الفاتنة؟!.. بدون قصد وأنت تعرفني حقا.. لقد بحثت عنها ببراءة فوجدت صورتها العالقة بين عدسات عيوني الفضولية هنا في هذا الشريط، حتى أنها

قلدت بدقة تلك الفاتنة الألمانية في كل شيء، بملابسها وشعرها الأشقر الفاتح جدا، وهي شقراء حقا..

كان يتجنب النظر نحوي، لقد كان مشفقا علي من ثورة اللقاء، تركني ساهما لعدة دقائق، كان يراقبني بخفية، ثم شرع يصرخ بمرح:

-: أغلق محلك بسرعة.. هيا أسرع.. سننطلق نحو مرحلة ثانية.. فاستعد... لنشرب نخب هاله.. مجرد قطرات ويسكي.. اسمح لي بالتصرف.. فقط رافقني الليلة.. لن تندم أبدا.. صدقني.. هناك أشياء وأشياء..

قلت له -: لن يحصل أي شيء مما تتمناه، حسنا ولكن لتنتبه نحوي فانا محطم بل وسريع السكر.. عليك أن تعيدني إلى فراشي.. هل توافق على شرطي؟..

حين أقسم، وافقت، فانطلقت السيارة بنا نحو ملهى ليلي يقع في ضواحي المدينة، كان يحمل معه كيسا وفيه مجموعة من الأغراض، وحين وصلنا، وجدنا مغنية، تغني بحرارة، ولا أدري كيف تحرك بعض الناس من مجرد ظهور سلمان الجمعة، وفي وسط القاعة الصاخبة التي صمتت فجأة، والجميع ينتظر انجلاء

لحظات الصمت، وعودة الحيوية الراقصة، وفوجئت به يقول للمغنية التي عانقته بحرارة

-: هذا هادي.. وهذه الهدايا من محله..

(أنا لست هادي.. ولست بثائر.. أنا مجرد ضائع يبحث عن أصل له..)

لا أدري لماذا عانقتني بحرارة، فلم تكترث لدعوتي لها كي تواصل غنائها المطرب، وكأنني أحد المعجبين بها، فأصرت على الجلوس معنا على نفس الطاولة، التي تهافت عليها جميع الخدم، فالكل يركض لماذا؟!.. لست أدري.. خلال لحظات أصبحت الطاولة ترقص بفرح فعلى سطحها كل ما لذ وطاب.. فقد تطوع للغناء بدلا عنها مغن رائع، وكان بين الفينة والأخرى يعبر عن امتنانه لكونه يحتل مكانها، وكانت تحثه مشجعة..

قال لي -: هذه هي الفنانة المغربية حياة، وهي متشوقة للقاء بك

قلت له -: من أين لها تعرفني أيها العرافة والساحر المشعوذ..

كان يضحك ويرد علي قائلا: - لقد حدثتها عنك كثيرا..

بكل مودة سألتني: أنت تتكلم الفرنسية. أليس كذلك.؟

قلت لها-: والمغربية أيضا.. (دابا..مزيان)- على الدوام.. حسنا -

ضحكت وهي تربت على كتفي مشجعة ثم قالت:

- تتكلم (الشلحة)؟!.. ماذا عن الأمازيغية؟.

حين قلت لها -: (ازوا فلاون)- مساء الخير بالعربية- و شكرا على حسن انتباهكم..

ضحكت، ثم ظلت تضحك وحين استقرت على بسمة قلبية راضية، وصفتني بالفرنسية بالشخص الخارق للعادة، ثم أعلنت بأنني أستحق أن أكون على الدوام بقربها كي تغني حتى الفجر، وليسعد جميع من في القاعة.

كنت مأخوذا بعطر المكان، وكأنني داخل زجاجة عطر صاخبة وهي تضج بالحيوية والصوت.. كان الصوت مطربا.. وكان هناك بعض الحرية، حرية للنساء

الفاتنات، وهن يتحركن بحرية.كالفراشات حول الضوء... ولا رجال تغضب أو تستاء.. فخطر ببالي أنها مملكة النساء البديل، كما توقع لها الشاعر العبقري نزار قباني، وكما صدحت بها حنجرة الفنان العالمي كاظم الساهر..

فجأة دخل الدكتور مازن.. أحيط بعناية واستقبال حسن من الإدارة والعمال، لم يتوقف بل توجه مباشرة نحوي، لقد كان يبحث عني وبعد عناق حار قال:

- لم أرك لعدة ليال.. هل أنت هارب مني يا أخي؟..

قلت -: لا يهرب الأخ من أخيه.. بعد قليل ستعرف السبب فقط انتظر..

لاحظت الفنانة حياة رغبتي الجارفة بترك الطاولة التي نجلس عليها، فأنا أريد أن أراها ممتعة لجميع الحاضرين حين تكون على المسرح، وتلبية لرجائي لها عادت، وحين بدأت الغناء سرت روح جديدة روح حياة، لا أحد يتمنى لها أن تنقضي أبدا.. فكل شيء من حولنا صار يرقص، إلا نحن..؟!.. عفوا إلا أنا..

(عبد القادر يابو علم..ضاق الحال علي..)، وهي أغنية النجم الجزائري العالمي الشاب خالد..

تذكرت ما قالته لي هاله: انه هو وليس هو.. وفجأة قلت بصوت مرتفع وسط الضجيج والصخب،نعم أنا هو من هو ليس أنا.. ثم التحمت بجوقة الراقصين، بفعل خبيث، هو من عمل سلمان، لأنه عرفها قبلا، بما أحب وأشتهي..

أنا أرقص بشكل مدهش ولكنه غير وقور أبدا مع المغنية حياة، وهي التي كانت تتوقع أن أكون مشاكسا ونكدا، ولذلك راحت تضمني بكل حنان، وهي تغني بصعوبة، وكانت معتادة على الغناء، مكان البكاء ألما.

تكلمت معها بالفرنسية ورجوتها أن تغني أغنية (عائشة أصغ إلي) لنفس المغني وهي أغنية مزدوجة اللغة مابين الفرنسية والعربية، فلبت الطلب.

في تلك الليلة لم أسكر أبدا، حتى لو شربت كل براميل نفط هذا العالم الخانق، حتى لو استنشقت كل فحمه المحترق، ففي طفولتي البعيدة كنت قد شبعت من

الهدوء الروحي، من أكسجين النهار الذي تطلقه أشجار النهار خلل الشموس المشرقة، ومن النوم صيفا ووقت القيلولة في كوى الزيزفون وتتساقط زهوره الصفراء لتملأ شعري ووجهي وتستنشقه ملابسي وحين أصحو سأشعر في كل مرة وكأنني كنت في عالم سحري.

حين عدنا مع الفجر كان الدكتور مازن سعيدا للغاية، وكان يقود السيارة بكل انشراح وهدوء، وحين وصلت إلى المنزل الذي أعيش به وحيدا، نزل برفقتي ولم يتركني حتى اللحظة التي فتحت بها الباب، ثم دعوته لنشرب القهوة سويا أو لنكمل شرب الخمر، أو ليبنام هنا حتى الغد بدل قيادة سيارته مخمورا أواخر الليل، كان مترددا في قول شيء ما، فقد عبر أكثر من مرة عن رغبته بالحديث عن شيء مهم بالنسبة له، وأخيرا قرر الذهاب مصرا على النوم في بيته مع ولديه الصغيرين، ودعني بحرارة على أمل اللقاء بالغد أو بعد عدة أيام.

حين صرت وحيدا كنت أردد مع الحظ والصدفة، ورغم النشوة السامة:

-: لن يبقى في ذاكرتي المتعبة، ومن الطفولة الغابرة سوى الربيع.. الربيع الفواح بعطره..ولن أخاف مطلقا إلا من العطور الأخاذة.. فالعطر هو الأول والأخير.. عطر النقش الأول عطر ما يتبقى أخيرا.. انه الربيع.. الربيع دائما..

لم أنم كعادتي ليلتها رغم الثقل فوق راسي المثقل بهموم الرتابة والعادية، ولكنني للمرة الأولى وقبل أن ينبلج الضياء ويشع الضياء الأول، كنت قد بحثت هنا وهناك عن دفاتر وأوراق، وعن أقلام مهملة منذ زمن بعيد، فلابد لي من أكتب شيئا ما..

وقبل أن أنام كنت سعيدا بأن أكتب شيئا عن تلك الظلال الحقيقية، ظلال امرأة فاتنة تفوق الوصف، وهي مقربة من روحي الميتة، وهي تدعوني للحياة كيفما كان شكل الظهور على مسرح الطرب الماجن أو على سطح السماء الزرقاء المشرقة قمرا من دون هالة؟!..

(٣)

تعددت اللغات والحياة واحدة، وتغيرت الأشكال والسلوكيات بيد أن الإنسان واحد، ومن البساطة بمكان اعتبار الإنسان نقيض نفسه، كما يقال، هو الكائن الوحيد الذي يناقض بعضه بعضا، ويمكن اختصاره بالكيف واللماذا والى أين؟..

هذا ما شعرت به مغتربا، بعد أن عدت من منافي الغربة، لقد عشت بعيدا عن بلادي وقريبا منها، ولكنني لم أفكر بمقدار بعدي واقترابي، بل وضياعي في الحياة من جديد بل من بعيد ورغم الأسى والألم فلم أكتشف بعد ما هو الجديد الأكيد، والمفيد؟!..

لقد ضعت حتى لم أقدر على فهم ضرورات وجودي، وحتى حاجياتي الأولوية، كل الأشياء تخالطت، فمن يفهم من؟!..

أنا متأكد بأن لا أحد يفهم الآخر، فالكل سيصبح في لحظة غريبة كمثل مساحة مهملة لا نشعر بها، وكأنها زيادة عن اللزوم؟!..

من هو الزائد عن اللزوم، وكيف سيظهر هو اللزوم بعينه؟ هذا غير مهم، فالأهم أن يعبر عن نفسه، أن يعبر بدقة، ومن جديد أقول لنفسي: هذا غير مهم، ولكن المهم أن أعيش مع نفسي بصدق، لن أخسر نفسي...

فجأة تمت المكاشفة وبرزت الحقيقة أمامه كما برزت أمام الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين، وهناك درجات، وكان ذلك حين اكتشف مبكرا ذات لحظة الم ومعاناة موغلة بالشقاء، بأنه مجرد فقير، ولكنه ليس بالحقير، فالأماني وحدها يمكن لها أن تصنع حياة أفضل، وحدها بصدق، ستكون كافية برسم الواقع الحقير على نحو أفضل؟..

من يحبني سيحاول تعليمي، ولأنني أحب التعلم فقد كنت إرهاصات الحق لكل من يريد النبوءة وصنع التاريخ.. فلا غرابة أن أبدا حين أكون مخيرا بين الاحتمالات، احتمالات أن أكون مجرد أن غريبا تافها

سـيمر بكـل جهـل بـين المعرفين، فلابـد أن يملـك، وأن يـصنع عرائـشه المعربـشة بـين أن أكـون أو لا، ولا لـن أكون، لأنه سبق أن قضي على كل اختيار..

حين قابلته مع ثلة من أبنائـه، كـان قد دوخني، بل وحيرنـي وهـو يسوطني بوعيـه الزائـد، كـان يـدعي وهـو أبدا سيدعي ولكن من غير وجه حق ؟..

حـين هنـأني صـالح الـصغير بـالعودة والـسلامة، لم أكـن أشـعر بقـوة مـشاعره الـصادقة، وقـد كـان هـو الوحيـد مـن بـين النـاس، كـان يبـدو لـي كطفـل صـغير، رأسـه المثاليـة التكـوير وعينـاه المـدورتان، وأشـعة فيهمـا تـضج بالحيويـة الطفوليـة، كـان شـعره الأسـود الفـاحم مجـدولا بنعومـة ويغطـي جمجمـة رأسـه خفيفـا كـوبر الماعز، خفيفا، ومع ملابسه الفسفورية الناصعة الألـوان، وضـحكه المتواصـل الـذي يـنم عـن الـسعادة والرفاهيـة الزائـدة، وحـب الحيـاة، وقـدر كـبير مـن التحـرر، وهـذا كثير في بلد تستوطن فيه الكآبة بإهمال.

ما لا أفهمه حقا نقد أحدهم، بشكل لاذع ومخيف:

-: انـه يـشبه المهـرج، انـه لـيس سـوى ممثـل فاشـل، يعتقد بأن الحياة مجرد صورة زاهيـة..انـه يفعـل كـل هـذه الشطحات ليغطي على شيء يعرفه الجميع!...

كـان هو الآخر قد هجر المدينـة، وعـاش حيـاة طويلـة بالغربـة، ولكنـه حـين عـاد اسـتقبل بباقـات مـن الزهـور، ومـن أشـخاص أغنيـاء مثلـه لا يمـشون في شـوارع المدينـة الموحلة علـى أرجلهم، ولا يـسفهم العجـاج والغبـار المتطـاير مـن مكــان، فـلا تحـترق عيـونهم، لأنهـم خلـف زجـاج سـيارات مغطـاة بالزجـاج المـدخن، ولا يتعرقـون أيـضا لأن الـشمس لا تلمحهـم، أو تلفحهـم، فهـم خلـف المكيفـات لـيلا ونهـارا، إنهـم يبـدون حقـا كعلـب الحلويـات الـتي يحملونها، ويتفـاخرون بهـا فيمـا بيـنهم، ويتنـاقشون حولهـا كثيرا..

حـين زرتـه هـذه المـرة، نهـض تاركـا كـرسـيه الهـزاز خلـف مكتبـه، وكـان يـضحك كعادتـه، كـان يحـاول إرغـامي علـى الجلـوس مكانـه، لكنـه لم يـنجح، لأنـني أشـد صـلابة منـه، وربمـا فظاظـة، فمثلـي لا يـصعب عليـه نيل شهادة عليا بالجلافة المعروفـة عنـا، وكـان يـستعرض

مجموعة من المسدسات التي بدت أشكالها المعنية الصلدة وفوهاتها الصلدة، كأنها مدافع صغيرة، وبقيت مدة من الزمن مذهولا أستمع لأصوات سحبها الخشنة، وهي تنذر بخطر الانفجار، كانت تخرط من حين لآخر ثم يتحدث أصحابها عن ميزتها الانفجارية ولمعانها كالشهب، بل وصداها المزمجر كأسود الغابة، كان كل من حوله يصور له بدقة كيف يمكن لتلك الأسلحة أن تنشر الذعر في ليل صامت وبهيم.

كان أول ما نطق به: هل يوجد هل في هذا البلد مجرد رجل واحد، لقد ماتت الرجولة على ما يبدو، فلا أحد يستطيع التحدي، هنا المرء يخشى من كل شيء وحتى من نفسه إذا أحست بأدنى مشاعر الكبرياء.. أشتهي أن أسمع عن خصام ورؤية مشهد تحد..

قلت له: كأني بك تبحث عن المستحيل.. أو عن الإبرة الضائعة وسط بيدر التبن؟..

التفت نحوي مبتسما من أعماق مسرحيته الناجحة ثم قال:

-: قل لي شيئا، كيف تذكرتني.. مرني أصنع لك شيئا..

قلت له: - حسنا أشرب القهوة.. كما ستشربها أنت..

قال: - قهوتي بدون سكر، سادة..

قلت -: ليكن سادة أم عبيد المهم أن نشربها بوجودك..

لم أرفض سيجارته الفاخرة، كان يرقبني بسرور مصطنع، ومع الرشفة الأولى من فنجان القهوة المرة، لم أتردد بالحديث

-: أخي وصديقي.. أريد منك أن تعيرني لعدة أيام سيارتك، ومنتجعك النهري، ومستلزمات فاخرة تكفي لقضاء عدة أيام هناك..

لم يفكر كثيرا، فقد رد علي سريعا

-: تمنيت أن تطلب ما هو أكثر بكثير من ذلك، أنت أخي الكبير..لك ما تريد وأكثر، فالمهم عندي أن أراك سعيدا..

فكرت بالاختصار وتقليل التكاليف، فقلت:

-: كن معي يا صالح عند اللزوم فقط، فقد ينتهي الأمر سريعا وبأسرع مما تتصور..

لم يقل شيئا ، لكنه سال باهتمام جاد

-: متى تريد ذلك ؟...فقط قل متى ؟..

قلت -: بعد أسبوع على الأكثر...

ضحك وقال -: يظهر أنك تخطط للأشياء بشكل مبكر ؟!..

قلت ملاطفا : أراك تكثر من التبرج ببرج العرب.. فمرة صورة ومرة لوحة ومرة تمثال..

قال: عشت في دبي، ودبي أصبحت عاصمة عالمية.. لقد غادرتها مكرها ولكنني أحن للعيش فيها مجددا ..فمن يعيش فيها طويلا يصعب عليه أن ينساها ، وهذه الأشياء تذكرني في كل يوم بتلك الأيام السعيدة..

حين غادرت المكان، شعرت بقليل من الحرية ، وهي حرية زائفة لطالما عذبتني كثيرا ، ما لم تحدث فعلا لأن كل شيء يمكن له أن ينتكس ويتراجع، ويضيع.

حين خرجت كان في وداعي، وهو يشيعني بكل حب وتقدير، ويقسم أن هذا اليوم هو من أسعد أيام حياته، الأيام، وأنه كان يتمنى تقديم أي خدمة لي.

(٤)

التقينا هناك، كان نهر الفرات يهدر ببساطة، ويتلاطم بهدوء على سور القصر، فخلال دقائق كان قد عرفنا على كل المحتويات، وعلى أسراره الخاصة، وخزائنه العامرة، مما هب ودب، كي نعيش ونلعب كما نحب، حين أوصلنا صالح بسيارته الفارهة لم يكف عن النظر إليها بإعجاب، وكان

يطلق من حين لآخر عبارات مشجعة

- أنتما مثاليان حقا...من العدل أن تعيشا معا.. هنيئا لكما..أنا سعيد بل أحسدكما..

لم أمنحه فرصة الاختلاء بي، لأنني أعرف ماذا يريد قوله، انه يريد تهنئتي، وعن حسن نية، ولكنني أمام حالة

مثالية ذات قدسية ولن يتسع المجال وشرحها سيطول..

حين بقينا لوحدنا كان أول ما قالته لي

-: نحن لا نحتاج لكل هذه الرفاهية.. المهم أن ننفرد معا بعيدا عن أعين الناس..

قلت لها -: أعرف ذلك، لك ما أردت، فكل ما يهمني أن أراك تنطلقين بقوة.. فأنت حرة كفراشة ربيع دائم، فلا تنخدعي بالضوء لأنه سيكون النهاية المميتة، بينا أنا لن أكون حرا ولن أبلغ حد الثمالة مهما تماديت، رغم بؤس الخمر التي أشربها.

قالت -: هذا ما أعرفه عنك من قبل، وأنا هنا ليحدث شيء قد يعكس كل ذلك؟!..تذكر ما كان يقوله ابن عمك.. كان ذكيا حقا حين وصفنا بالثنائي المثالي.. فالمثالية غاية وطريقة عيش، وتكون أعظم ما يكون حين تكون بين رجل وامرأة..

كانت تتحدث وكنت أطرق ساهما فنحن الآن أمام النهر، (هو ذا نهر الفرات) لحظة الشمس غابت وحل الظلام، الطيور هجعت، وحلت غمامات الظلام، وكانت تلألؤ كفانوس صنع زجاجه من زمرد أخضر،

وسط الجزيرة الخضراء القاتمة، بينما عطرها الفواح يغطي على كل الرياحين الهفهافة القادمة من شجر الغرب والحور والسرو، ولن أنسى وجهها الحائر كوجه الشمس الغاربة وعلامة استفهام كبيرة ترتسم على وجهها الملائكي، فالحياة جميلة وتستحق تجربة أن نعيشها بعمق وصفاء ولكن ليس مع هالة.

حين ساد الظلام ولم يتبق غير ضوء القمر والنجوم ينعكس على مرايا النهر، والجزيرة التي أمامنا لم تعد سوى غفلة شاحبة توسوس كأشباح ناعسة، وتصدر عنها أصوات ناعقة من حين لآخر وكأن النوم لا يحدث فجأة.

أطلقت شعلة المحرك الكهربائي فارتفع الهدير وانتشر الضياء حولنا، فكان المكان يضحك بسخرية من أكبر وردة جورية تملأ المكان عبقا وهي إلى جواري، وطغى على سماء المكان: الأسئلة المحيرة، وهي أسئلة بحجم الصمت الرائع والمثير.

كان أول ما صنعته هو نزع سترتها الأنيقة، ليبرز صدرها العارم عن نهدين بارزين، فيهما الكثير من عبارات التحدي، ففيهما تنبض الحياة وتهدر بقوة تفوق

ليس نهر الفرات فحسب بل كل شلالات العالم، فكل شيء فيها يتحداني ويمكن له أن يعيدني إلى زمن الطفولة وربما الحياة من جديد وشتان مابين النهاية والبداية ففي البداية التي أوشك أن يطويها النسيان عدة فضآءات، عدة وعقول عدة بل وتجارب مثل كل الطبقات الجيولوجية المتراكمة بإهمال، والتي لن تكتشف أبدا أبدا، من الحياة فوق الموت ومن ثم الحياة.

من بداية الليلة الأولى التصقت بالمطبخ والثلاجة، فانتشر الدفء فيهما، فالتمعت الكؤوس وضحكت الصحون على غير عادتها، جاريتها في إعداد بعض المقبلات، وبعض الأعمال الناعمة، بينما انهمكت في الجزء الخشن من عمل المطبخ، كانت ملامح السرور بادية على وجهها، وتعمل بحيوية، كانت كتلميذة مدرسة تقوم برحلة خارج قاعات الدرس نحو الطبيعة قلت لها مازحا:

-: لن أقتنع أبدا بما تصنعين، فأنت في البيت لا تلمسين شيئا..

ضحكت بخجل ثم قالت:

-: نعم هذا صحيح قبل سنوات.. أتمنى أن تصدق ما هو عكس ذلك، تغيرت حياتنا، لم تعد أمي قادرة على القيام بأي شيء، فأنا لوحدي، في السنوات الأخيرة التي تعمل كل شيء في المطبخ وغيره.. المطابخ اليوم حديثة وفيها كل وسائل الرفاهية..

-: ما هي أفضل طبخة تتقنين عملها؟..

ردت على الفور وبحماسة بالغة -: ورق العنب..هل تحبها؟..

-: سأقول لك ما يقوله الأعمى إذا قالوا له صنعنا لك حلوى، عندما تضعوها في فمي سأعرف حقا إن كانت حلوى أو أي شيء آخر..

ضحكت وهي تنظر نحوي بدلال ثم سألت بفضول طفولي:

-: ماذا يقصد الأعمى بقوله (أي شيء آخر)..

-: يقصد نعل حذاء جلدي عتيق..

ضحكت بقوة، حتى أن أطيار الجزيرة الفراتية سمعت صوت ضحكتها الجذلانة، فردت عليها بزقزقات حادة في ظلام الليل هناك.

-: كأنك تطلب البرهان على صحة ما أقول..أليس كذلك؟.

-: نعم ولكن ليس في هذه الليلة..اختصري.. تعالي لنتحدث عن الأهم..

-: سآتي ولكن ليس قبل أن أتم عملي هنا، فالمكان هنا مهجور منذ مدة، ومن واجبي أن أعيد إليه بعض مظاهر الحياة.

لقد تصرفت بحق كربة منزل، بعيدا عن فنها ولوحاتها، والمطبخ ليس مرسما، فالمطبخ وان كان يخلد لحظة ما، فاللحظة ستبقى مجرد لحظة، والأهم بالنسبة لي، كيف سأجعلها تؤمن بأن لحظات خلودها هي بالذات هي الأهم، فماذا أصنع؟.. سأحاول التهرب منها بأي شكل من الأشكال، سأترك المطبخ التعيس، سأدعها لوحدها تعيش وهم خلود لحظة لا تستحق منها أن تفعل ذلك، لأنها تريد.. لذلك هربت من أنوار المطبخ

المشع نحو الممر الخارجي، الذي يواجه السماء والنجوم اللامعة فيها ، حيث الصمت والهدوء الشاعري، هربت من نجمة ساطعة تتحدى أنوار المطبخ إلى سماء سوداء تعج بالنجوم، كنت أشرب الخمر بطريقة شرهة للغاية، أشرب بعطش بالغ، حتى أنني ارتميت بشكل بليد على أريكة ملقاة بشكل كسول وغبي بين عريش ورود زاهية، تكلمني من حين لآخر ولا أفقه شيئا من حديثها الصامت، لأنني تعودت أن أتعايش مع الصدمات، وكأنني جدار يلقى عليه من حين لآخر مجموعة من الأحجار القاسية، ولولا أن صوتها العذب يأتي من فينة صمت إلى أخرى، ليذكرني بوجود ملاك معي يتحدى الصمت والسكون وأشباح الخوف من الذات.

-: أين أنت يا هاله.. دعي كل بين يديك.. تعالي واشهدي..

-: أنا قادمة.. عما قريب سأعد لك شيئا.. أرجو أن ينال رضاك..

حين تظهر وتتراقص الأشياء من حولها ، رائحة من هنا ورائحة أبخرة أطعمة لذيذة، ولكن رائحتها الخاصة بها ، ظلت تطغى على كل شيء!!..

قلت لها – نحن هنا لنرتاح من تعب الحياة اليومية ، كفي للحظات عن الطيران كنحلة تصنع الشهد ، واجلسي، لنتحدث قليلا..

أجابت -: انتظرني قليلا.. لم ولن يبق شيء..لا تشرب كثيرا ، فالويسكي الذي تشربه يلزمه الثلج، والماء لم يجمد بعد.. يلزمه على الأقل ساعة.. تريث قليلا..

قلت لها مازحا

-: اطمئني لن أسكر أبدا حتى لو شربت ماء الفرات بأكمله..

ضحكت ولأول مرة تتكلم بوضوح:

-: سنبقى هنا لعدة أيام، وأنت تشرب بشرهة بالغة ، إنني أتوقع أن تسكر بعد قليل وقد تنام دون سابق إنذار هذا ما أخشاه حاول أن تقاوم.. لا أظنك تستطيع؟!..

صمدت حسب وجهة نظري بما فيه الكفاية، حتى أنني استطعت خداعها برؤيتي واعيا وصاحيا، فأنا لم أكن حينها سوى بشر يدمدم حوله طواحين وحي أو لهبة نار من الشياطين، وكانت هي لوحدها كملاك تائه تحاول جمع أعضائي المنفصلة، كانت تكافح بكد، ولكنها لم تكن تفهم أبدا، طبيعة الصراع... بين الخير والشر.

هذا ما حدث بالفعل، فقد صحوت فجرا، فوجدتها نائمة بالقرب مني، فبدت لي وكأنها نامت وهي خائفة علي، فربما كانت تنتظر لحظة صحوتي، وكأنها خائفة تشعر بالأسى، نظرت إليها ناعسا فأحسست بأن الحياة تدعوني لكي أعيش، لم يكن غريبا عندي أن أبصر فاتنة تنام بقلق، فاكتفيت بإلقاء رداء خفيف عليها كي لا تصحو قبل الأوان، ثم نمت بعمق، كان ثمة شرخ فظيع يجتاحني، وأنا أشعر بالعطف والحب الشديد نحوها، فأنا أخوها وأبوها وكل من يجب العناية بها، إنها الجميلة الفاتنة، الطائر المغرد، ولكنها فقدت فجأة القدرة على الطيران، رغم أن أجنحتها

موجودة يمكنها الطيران عاليا لو أرادت ذلك، ولكنها تخشى ارتياد أجواز الفضاء.. كل شيء ستفعله يناسبها حقا لو علمت.

نمت حقا، نمت بعمق، حتى ضحى اليوم التالي كعادتي، يبدو أنها واعية بشدة، لقد عرفت بأنني عارضت صحوتها، حين ورأيتها وهي نائمة،وأدركت بأنني تصرفت بأمان تام، كأننا أخوة في منزل واحد، بدون قصد بدون أي محاولة لفرض الهيمنة.

حين صحوت، كانت تنظرني، فالقهوة المعدة بعناية كانت قد بردت، عيونها العسلية مسمرة على جسدي الغائب عن الوعي، وكنت قد شممت رائحتها من قبل، أين أنا؟..، فركت عيوني متسائلا.. لست أدري.. لقد كنت نائما بعمق وأشعر بالأمان المطلق، ولكنني مرهق للغاية، فالمكان ليس لي وما وجودي فيه سوى وجود عابر وزائل، فأنا لا أملك في هذا الوجود شيئا ولكن الذكرى قريبة وواضحة.

كان كل شيء دافئا من حولي، واللحظة التي صحوت بها ملائمة، ولكنني أعاني من نظرات عاتبة

علـي، وقلقـة للغايـة، فمـن غـير المعقـول واللائـق أبـدا أن أكــون مجــرد روح أنانيــة تــسافر لوحــدها بعيــدا بــدون مـشقة، كمـن يعـيش لوحـده وينطلـق كقطـار لا ينتظـر المسافرين، وكأنه لا يحب الحياة، بل ويخشاها.

نهـضت بتثاقـل كانـت ترتـدي ثيـاب نـوم محتـشمة، فالأناقة التامة ترافقها كيفما ظهرت، فهي تختار الأزياء التي ترتدي بعناية، كما تفعل مع لوحاتها الزيتيـة، فهـي تكــره النفــور والتــضاد، وتعــشق التــآلف بــين الألــوان، وكنت حين أنظر إليها أتساءل بكل أريحيـة عـن الجـزء الـشاذ مـن لمـسات الريـشة الطائـشة، فـأقول في نفـسي لا يمكن للأناقة أن تبقى على خط واحد، لابد مـن لحظـة فوضى ليظهـر الجمـال العقلـي مثاليـا، الجمـال الظـاهر لا يمكـن إخفاءه، ويمكـن لـضربة ريـشة سـاخطة أن تجعـل الجمــال يــصرخ في التعــبير عــن نفــسه، ليكــون مــثيرا، وآســرا للمــشاعر الــتي تحــس بــه، لم يخــف عــن عيــوني شــيء، كــان كــل شــيء ظــاهرا، كانــت امــرأة جميلــة ولكنها طهورة ولا تثير الغريزة، فهي لا تبتعد كثيرا عـن جو المدرسة.

كان سجن الشك والأسى يملأ صدري حزنا خفيا، فالجمال الفاتن سيمضي نحو الموت، رغم الزهو المخادع من حولي، فالسجن كبير وأكبر بكثير من كل خيالي الواهم، ولكنها قالت لي:

- أنا أعرف ما لذي تفكر وتتعذب منه، وقد رأيته قبلك وأنت بالسجن، فالسجن بالنسبة لنا جميعا حالة دائمة.. الاستحياء هو السجن الدائم، سجن أن نبقى رهن التحفظ والخوف من العادات والتقاليد، فالعادات والتقاليد لم توجد لتكون مصدر شقائنا... واهم وسجين من يعتقد بها.. وهو سجن أبدي يفوق في خطورته السجن السياسي المؤقت.. أعرف بأن الحب ليس شيئا مصطنعا، انه هو غامض جدا.. لا أحد منا يقدر على صناعته بالشكل الذي يرغب به فالحب أكبر من الفن نفسه.. فلو كان يساوي الفن لاستطعت أن أبدع فيه طريقة خاصة بي وحدي ولكنت أعيش بطريقة مرضية.

كان صوتها مميزا كجرس عتيق للغاية، لقد كانت تعيش لوحدها أمدا بعيدا.

اللاء التي في أعماق أعماقي متصلبة، فالحياة أرحب بكثير مما تتصوره امرأة فاتنة وتستحق شخصا يليق بها، فليس من العدل الذي تزعمه أن أسرق جمالها الساحر، هكذا بزعم المثالية والمثال، وكأن بالأمر مجرد هرم صخري غير ناطق ولكنه يشمخ بإباء متعاليا على كل دواعي القدرة والغريزة فالحياة ليس مثالا ولن تكون كذلك أبدا..سأدافع عن نفسي أولا، وسأدافع عن الحياة ذاتها، ولن أهرب من لحظات اللقاء معها ولابد من قول أشياء كثيرة ومن الواجب علي أن أكون مقنعا، فكيف يمكنني فعل ذلك، لابد من الاعتقاد بأننا في البيت معا وسط الأهل، ونحن البلابل المغردة فيما بينهم.

طلبت منها أن تصب لي كأسا فقالت:

-: أتريد العودة للنوم ثانية..ألا ترغب برؤيتي؟!..

لم أتمالك نفسي من الضحك وهي تتساءل بشكل وقور فقلت لها:

-: لا من أجل أن أصحو، فالأمر معكوس هذه المرة..

علقت بإيجاز بليغ -: وداوني بالتي كانت هي الداء.

قلت -: نعم.

لم تتكاسل أبدا ، وحين رشفت جرعة مناسبة ، قالت:

-: لقد مرت ليلة ولم نتكلم فيها..

قلت -: لقد تكلمنا كثيرا ، ألم تشعري بذلك ؟!..

قالت -: حسنا ، فماذا قلت لي ؟..

قلت -: لقد قلت لك كلاما واضحا ، سأكون معك في كل شيء ترينه مناسبا..

فكرت قليلا ثم قالت -: تقصد ما قلته حين التقينا في..

قلت -: نعم أقصد..

قالت -: وأنا أقصد أيضا..فأين الجديد؟..

كانت متحفزة ولبقة ، وعلى لياقة عقلية ممتازة ، وتبحث بشكل جدي ، ولن يسهل علي إقناعها بترك المسألة ، مهما حاولت تشويه صورتي أمامها ، فمن أن الواضح أنها تقرأ كل الحركات التمثيلية وتهزأ منها ، ولكنني اشك بعيب وحيد فيه ، وهو كبر عقلها قياسا إلى صغر سنها بالنسبة لي.

قلت لها -: أنا متوحد هذه الأيام مع الألوان..

لم تتركني أكمل حين قالت: - ليس لك حاجة للألوان.. لم تعد ترسم.. أنت تكتب فقط على الأقل كما بلغني.. وتكتب الشعر من أجل الغناء والطرب..

قلت لها -: أنا أرسم فعلا..

كانت تتهمني وهي تسأل– أين ترسم؟!.. أترسم بدون أدوات؟!..أعرف..

قلت في قلبي (يا سلمان أيها الشيطان ستموت من الرقص.. يا ساعي البريد.. يا هدهد سليمان)

قلت لها -: أنا أرسم على الكومبيوتر.. برنامج الرسام خصب وغني..

علقت -: أتعتبر الرسم على الآلة الإلكترونية فنا؟!..

قلت -: لمه لا؟. فالكومبيوتر ليس آلة صغيرة، انه آلة الآلات.. وهو من ربات الفن.. وعما قريب سنجد طائفة كبيرة من الناس سيتخذونه آلهة تستحق العبادة..

قالت: بعض مما تقوله يحدث الآن.. ماذا عن الفنان؟..

قلت -: الكومبيوتر آلة الآلات..أنا آلة.. إذن سأتبع آلة الآلات..

احمر وجهها خجلا، أدركت بأن الكلام مجرد سخرية ثم

قالت -: هذا منطق سقراط مقلوبا.. ولكنك لن تشرب السم لوحدك هذه المرة.. سنشربها بشكل زوجي غير مفرد.. لن تهرب مني بأي منطق كان حتى بالتأمل الديكارتي..

قلت: أنا أفكر ولكنني غير موجود.. الحب ليس سببا للوجود..

ضحكت ببراءة طفل ثم قالت:

-: هذا ما كنت أتوقعه عند اللقاء بك والعيش معا.. أنا لم أفهم..

قلت -: انه الثمن الباهظ للفكر.. انه الألم الناتج.. بل والخيبة التي تأتي بعد النجاح الباهر..

حين ضحكت قالت: لم لا نضحك سوية..

قلت: لم لا ، حفظ أحدهم المنطق على أنه سلسلة من الصواب لا تنقطع، فالانقطاع يعني النفي والنفي يعني الانعكاس والتضاد.. حين طبق فهمه للنظرية على صديقه قال: أنتم تعيشون باحترام في قصر، نعم، وفي القصر سيدة محترمة هي أمك، نعم، ولديها كلب، لا ، إذن أمك (؟) وليست سيدة...ثم ماذا؟..

-: إنها أمي يا؟؟. ولم يعد يسمع سوى صوت اللكمات الدامية..

ضحكت ثم قالت

-: قل شيئا سأحفظه عنك وتهديه لي أنا وحدي

قلت -: أنا إنسان.. إذن أنا أخطئ بالرغم عني.. وحين أخطئ لابد لي من الاعتراف.. حين لا أعترف لن يكون بمقدوري أن أموت.. للموت بوابة والاعتراف مفتاح للدخول إلى ما بعدها وهو مجهول..على الأقل لأنني مخطئ.. إنني حين أموت سأكون مضطرا لقرع الباب، والاعتراف ثانية، لأنني أبحث عن تراب وأرض تواريني وتقبلني، إذن أنا أتغير وأموت حتى.. بينما الملائكة لا تملك مثل الحالة المتردية التي تسمو فجأة.. إذن أنا محسود لأنني أعيش

وأمـوت وأتغـير.. ألـيس مـن الغريـب أن يعـاديني في المـوت بعض الملائكة ويصاحبني بالحياة كل الشياطين؟!.. إذن أنا قريب من الله..

قالـت معلقـة: تلـك ملامـح مـن فلـسفتك العامـة، أريـد فلسفة خاصة بك.

قلت -: أنا موجود بالفعل، موجود بـالرغم عـني، أنـا موجود ولكنني لا أعيش، وان كنت أعيش فأنـا أعيش بصعوبة، وعن المكان الذي أقيم فيـه فإقـامتي إجباريـة، ألجأ لحياة العبث واللامبالاة، وأهـرب نحـو العزلـة وحتـى العـدم، مـن أجـل أن ينقـضي زمـن القهـر والعهـر في بـر الأجلاف، حيث لا كرامـة للإنسان مطلقـا، وحـين تـأتي لحظة الحرية المقدسة، سأهاجر من جديد.. سـأفر بعيـدا من هذا السجن الكبير.. أتمنى أن لا أموت هنـا..

قالـت -: هيـا إلى الـشرفة فهنـاك الـضوء والـشمس والنهر.. النسمة وانعكـاس الـضياء.. لـنجلس هنـاك بعيـدا عن عتمة الغرفة التي نمت بها، لتنشط قليلا..

لم أتـتردد في فبـول دعوتهـا الحـارة، وحـين خرجـت متثاقلا، أحسست بخطتها المسبقة، لقد أعدت المكان بعناية بينما كنت نائما، فمائدة الإفطار تنتظر..

كانـت الطيـور ووحـدها الطيـور تتـألق في تغريـدها الصاخب، وكان صوتها المنبعث خفية ومن بعيد، بينما الأسـراب الطـائرة كـان لهـا إيقاعهـا المتميـز كـالغيوم البعيدة.

قلـت -: دعـك مـن هـذا الجـو الـدافئ الربيعـي وربمـا الصيفي الحالم.. قولي لي يا هاله.. أسألك بجد.. ما قصة الألوان الرئيسية؟

ردت بهدوء: تقصد الأزرق والأصفر..

صمتت ساهمة تفكر ثم أكملت: - والأحمر

قلت لها – نعم.. وماذا يعني الأحمر بالنسبة لك ؟

صمتت فأضفت بقسوة بالغة – انه الدم..

قالت -: كيف قررت ذلك؟..

قلـت -: كنـت متوحـدا بالـصحراء ووحيـدا.. ثـم لاحظت أن الوجود الحقيقي المبسط كان ثلاثيا.. الرمل

الأصفر والسماء الزرقاء ثم ماذا؟!.. ليس غير دمي في هذا المكان الذي يمثل العطش العميق.. وهو أحمر.

علقت:- ولكنك كتبت ذات لحظة بأن الدم ليس أحمر؟!..

قلت -: لقد كنت حينها رمزيا والآن صرت واقعيا

علقت:- ربما حدث العكس..تكلم أبا الهول..

قلت -: ثم تعاقب علي الليل والنهار، فعرفت فيهما أوشحة بيضاء أو سوداء.. من الضياء الكشاف إلى الظلام المعتم على درجات فتتغير الألوان في كل لحظة زمنية تمر..

قالت: كأني بك تعيديني إلى الأكاديمية؟..

سألتها بعصبية: - ما اللون الحيادي في زمرة الألوان؟..

ترددت بالرد ثم تساءلت: أظنه اللون الرمادي.. أليس كذلك؟..

قلت لها: هل تعرفين كل معكوسات الألوان؟..

ردت بسؤال - الأساسية أم الثانوية؟..

قلت – الجميع..

قالت – أنا غير متأكدة من ذلك حقيقة..

قلت لها -: عندما ترسمين هل تتذكرين مثل تلك القواعد؟..

ردت معترفة – نعم نحن محافظون ولكننا نرسم بحرية.. غالبا خارج القواعد..

سألتها : هل رسمتني ذات يوم؟..

ردت بالإيجاب، فسألتها بأي الألوان رسمتني؟..

ردت – بكل الألوان حتى بالأسود والأبيض..

قلت: كيف وجدتني؟

ردت: بالأسود والأبيض كما أنت عليه الآن..بالألوان مختلف بعض الشيء..

علقت: إن صورتي الملونة هي الأقرب للحقيقة، وقد قاربت الغروب والغياب..

قالت: تحاول التهرب ولكنك لا تجيد فنه، فتذكر أنك لن تموت لوحدك، ومن الخير أن نعيش معا ولا بأس و أن كان ولابد أن نموت معا...

قلت لها: اسمعي يا صغيرتي

ضحكت كامرأة مكتملة الحرية في شخصيتها، فلم أجد حرجا من القول لها:

-: هل يمكن لك تصور حرق امرأة حية بلحمها وشحمها وجمالها، فقط لأن زوجها الهيكل العجوز والذي يسير محمولا على عكاز، كان قد فارق الحياة منذ زمن بعيد؟!..

قالت: أنت تفشل بالهروب مرة أخرى، ويبدو أن الفشل سيظل يرافقك في كل أنواع الهروب فأنت حين تطير لا أراك تحلق عاليا، وحين تسافر بعيدا فلست منفيا في أقاصي الأرض.. انك هنا، وستبقى هنا قريبا.. البعد في بصيرتك وعنا هو مجرد وهم رقيق كنسيج متهتك.. كف عن الالتواء بطريقة سمجة وغير مفهومة.. بل حاول أن تتخذ القرار.. القرار في أن تعيش مجرد لحظات استقرار..فقرارك سهل واضح، فإما أن تعود من حيث انطلقت أو أن لا تعود أبدا، كف عن التردد.. الحياة مجرد لحظات قصيرة.

لا أدري لماذا لم أقبل بعد ولو لحظة واحدة، أن تكون هالة امرأة واقعية، وجادة في تقرير مصيرها، من حقها أن تختار وتقرر مصيرها بكل حرية، نع، وهي وان كانت حرة فأنا لست كذلك، لست حرا بما فيه الكفاية..

قلت لها بحزم هذه المرة:

- اسمعي يا هالة، أنت من أهلي، نعم هذه حقيقة، ولكنني لن أستطيع إخراجك من دائرة التآخي، ووضعك في دائرة الصداقة حتى، ففيما تطلبينه شيء من المستحيل..

قالت: لماذا؟..

قلت: بل أنا من حقي المتواضع أن أسألك لماذا؟.. لماذا تريدينني أن أهبط من السماء العالية إلى الأرض المنخفضة؟..

قالت: سأشرح لك فالأمر بسيط للغاية.. أمي لم تكف أبدا عن تصور أن أكون معك، وأنا أوافقها، رغم وجود اختيار آخر في حياتي مع الزهد ورفض كل أشكال الزواج، وببساطة فأنا أريد أن أبقى إلى جانبها حتى اللحظة الأخيرة من حياتها، لأعوض لها شيئا قليلا عن معاناتها مع أخي، وفي هذه الأيام أصبحت عاجزة،

وهـي خائفـة علـي مـن أن أبقـى وحيـدة مـن بعـدها، لقـد صـارت همهـا أن تـرانـي متزوجـة ممـن تتمنـاه لـي، أو ممـن أريده..ثم أنه ماذا يصير لـو هبطت من عليائـك قليلا فقد نصعد سوية إلى أعلى السماء..

قلـت: تمـام.. أنـت حـرة بمـا فيـه الكفايـة، فحـين تتـزوجين ممـن تحـبين ويحبـك، فـستكون أمـك أو أمـي الثانية على أقل تقدير في بيت أخيـك، معـي أو معـه، لأنـه مـازال حيـا ويعـيش مـن خلالـي، فأحملـه ويحملـني، بـل ويسكـر معي.. أنت ذكية وستفهمين حقا ما أقوله لك..

قالت: أعرف ذلك.. فهل تعـرف مـن يريـد الـزواج بـي؟. انه شخص مسئول ومهم في الإدارة

كـان قـد تقـدم لخطـبتي والـزواج بـي، ولكـنني رفضته، وبصراحة لا أدري لماذا ؟.. ثم تـزوج بعـد أن يـأس مـن قبـولي لـه، ولكنـه لم ينـسى أبـدا أنـني لم أرفـضه لشخصه بل لظروفي الخاصة وكـان يحس بقـوة التـاريخ الماضـي، ولكنـه عجـز بـرغم كـل المحـاولات، في أن يقنعني بضرورة الحياة بعيدا عن الإرث الماضي..

قلت: لقد أخطأت بحقه في الماضي و فلا تواصلي الخطأ إلى ما لانهاية.... الآن أدركت خطأي الجسيم.. خطأي بعدم التواصل معكم كأهل، وبصراحة لقد راهنت على النسيان وزحمة الحياة، وبأن كل الخطوط النافرة يمحوها الزمن، بخاصة عندما لا يوجد من يثيرها عن عمد..حدثيني عنه قليلا..

ابتسمت ثم قالت: نعم، قد يكون هذا صحيحا، ولكنه كان قد تزوج فعلا، بالرغم عنه، بل وأصبح أبا لمجموعة من الأطفال..

قاطعتها -: وأنا كذلك.. لماذا ينحصر اختيارك؟.. لماذا تفكرين بأن تكوني زوجة ثانية.. لماذا لا تكونين الأولى؟!... لا شيء يمنع من أن تكوني الأولى بامتياز.. لست قليلة أبدا، فسلتك مليئة بالجمال والفن والأدب وحتى بريق الذهب، فأنت تجمعين كل الأشياء فكري جيدا.. أنا معك.. سأبحث بجد عن أفضل وضع مناسب لك.. هذا واجبي.

قالـت: لـيس لـدي الوقـت لأفكـر، فأنـا أشـعر بالحـدس، بـأنني لـن أعـيش خـارج هـذا الأسـبوع الـذي حدثتك عنه، ولذلك ليس هناك فرصة للاختيار..

فكـرت في أن أصفعها بقوة لكـي تخـرج مـن دائـرة الأوهام، لماذا تحبس نفسها؟.. لاشـيء يدعوها لفعل ذلك وهي الفاتنة الجمال التي لا تستحق غير الرعاية والحب، وهـي الجميلـة الـساطعة كنجمـة الزهـرة في ظلمـات الفجر، ولكنني أرتعد فرقا من ضآلة اختياراتها، كما ريشة طائر جميل صارت في مهب الريح..

بكـل بـرود قلـت: سـأموت قبلـك وسـيموت قبلـك الكـثير ممـن تحـبين، أشـعر بأنـك ستعيـشين طـويلا ولكنك لا تدرين أو تشعرين أو حتى تحد سين...

نظـرت إلـي تتفحصني بطـراوة، فاصـطدمت بـاحمرار عيـوني، وبـدت تفكـر بعمـق، وربمـا انتابهـا الـشك فيمـا أقوله، ولكنني دعوت بإخلاص أن تنساني، بل وتسقطني من كل حساباتها إنها جزء عزيز من كياني، ولكنني لن أقبل لها أبدا أن تكون أسيرة ماض، وأم أو أسرة، أريد لها ما تستحقه كنجمة مشرقة أن يكون لها سماؤها..

قلت: هذا اليوم لوحده يكفي.. سنفطر معا ونتغذى كذلك وقد نتعشى معا، هذا لا يمنع أبدا..تعالي معي لنتمشى معا وسط الجزيرة... بين الأشجار والحشائش...

كانت الطيور تغرد، وكل شيء بالجزيرة يفوح بالعطور، وكنت أمسك بيدها الدافئة كيديه، حين كنا نسير في السجن فجرا، وكنت أخشى عليه أن يمضي قبلي ويختفي في غابات المجهول الأبدية، فرسمه نحيل وسريع الانمحاء، فأنا خائف جدا وأعترف بأنه لا يستحق هذا المصير الطاغية، الذي لا يرحم أحدا.. انه السجن لمن لا يستحق أبدا أبدا..

في السجن.. كنا نسير معا بنفس الطريقة، أنا وهشام، لماذا جمعنا القدر أو الحظ فالصدفة ولسنوات طويلة، لماذا؟.. إذا كان كل شيء يتغير بصفاقة بالغة فلماذا التقينا؟.. لماذا وضع ثقته بي فخسر حياته بين قضبان السجن ثم الحرية ولكن مع المرض العضال؟!.. هل كان يتقصه شيء؟ أبدا لم يكن يحلم بشيء، لأنه من بيئة غنية تستطيع تحويل كثير من الآمال إلى واقع، لقد كان وحيدا لأبيه، وهو الملاك الغني، لم يعرف

شـظف الحيـاة، ولا عـرف الجـوع أو العـري حتـى مـن صـفحات كتـب البؤسـاء، لمـاذا تـورط معـي فـدفع حياتـه ثمنـا مـن أجـل مجتمـع وهـو المـدلل، مـن أجـل فقـراء لا يعـرفهم إلا مـن خـلال حـديثي عنـه، وبطريقـة رومانـسية لـيس إلا، فـرغم كـل الآلام و الاحباطـات الـتي حـدثت، وذوبان جبال الجليد، وتداعيها وحالة الاختناق بالـسجن، وانعدام أكسجين الحرية، فقد ظل يحملني في ذاكرتـه الـصلبة رفيقـا وفي رأيـي مـن أجـل قـضية غامـضة المعـالم، وقد لا تستحق التضحية من أجلها، ليس لأنني قد تغيرت اليوم كثيرا، وبأكثر مما يتصور، بل لأنـني لم أتـصوره أن يقـود الـصفوف الأولى مـن بعـدي، وأن يكـون رائـدا وطليعيا، بل ويضحي بنفسه من أجل بشر ليسوا أبدا مـن طبقتـه وهـذا هـو الـذي لم يخطـر ببـالي ذات يـوم، لأنـني كنت أشركه همومي كصديق ليس إلا، كيف لـي أن أتوقـع لمثلـه أن يـدفع الـثمن عـن غـيره وهـو الـذي سيخـسر كـل شـيء، بينمـا لـن يـستفيد أبـدا... لم نكـن نحـس بالإعيـاء، ونـتكلم كـثيرا وفي تفاصـيل كـل شـيء، نتذكر أشياء وأشياء، نحلـل الواقـع الـذي نعيشه اليـوم

ونحاول التغلب على جو القهر الملازم لنا في كل لحظة، ونرسم آمالا وأحلاما بعيدة للمستقبل ومن الغريب بأننا لم نكن نتكلم إلا قليلا حول الأسرة، لأن تلك المعلومات المحببة إلى النفس، كانت تأتي إلينا كتحيات وسلام وأشواق، عبر رسائل شفوية، في الدقائق القليلة من زيارة الأهل ولكنها مجرد دقائق قليلة سرعان ما تسحق كباقات الزهور التي تملأ فضاء الفرح وينتهي العرس، فتترك مهملة أو ينثر أوراقها الغضة الأطفال المشاغبون.

لن أسمح لمثل هذا أن يتكرر ثانية، فان حدث فأنا سأستحق الموت بجدارة، ولن يتبق أي فسحة لتبرير الإثم العظيم، فالاعتراف وحده لوحده لن يكون كافيا، فمن يغسل شعوري بالذنب غير الانتحار وقتل نفسي بطريقة فظيعة، لعل الله يقبل توبتي، ويغفر ذنب واقع لم أخلقه، بل مجرد حظ وصدفة أو قدر؟

كانت هاله تشعر بفقدان صلتي معها بل وتتساءل بذكاء بالغ، واشعر بها وهي تتهمني بالتهرب منها، وهذا ما كان يحدث بالفعل، فقد طلبت منها أن تذهب من طريق مخالف لطريقي، لقد طلبت منها أن نلعب معا

لعبة بحث أو (غميضة) وسط الجزيرة الفراتية الكثيفة الأدغال، من أجل أن ينقضي نهار ما، فلا تجدني فيه لأنني ألبث في مكاني ولن أتقدم خطوة واحدة بينما أوشك النهار على الانقضاء وهي تسير، فلم تترك زاوية إلا وبحثت عني فيها، وهي لن تجدني أبدا إلا إذا عادت من حيث انطلقنا وأكون لحظتها تحت العريشة في ظلال العطر الفواح، للورد ألجوري المتعدد الألوان.

حين عادت من الجزيرة الفراتية كانت منهكة للغاية، تماما كما كان الحال مع رفيقي هشام، حين تفاجأ بعودتي للوطن وفي السجن، وقد تلقاني بطريقة أكرهها وكلما تذكرتها أحسست بالانقباض والرغبة بالتمزق ألما، فقد قال لي وبكل سماحة

-: لماذا عدت؟.. لا أحد يتوقع لمثلك أن يعود.. لقد

كان ردي عليه ساخرا ولكنه لم يفهمني أبدا حين قلت له

-: لقد اشتاقت روحي للقاء مع زعيم هو أنت..ولكن ليس هنا..

قال بكل بساطة – نحن جميعا كنا نتمنى بقاءك بعيدا ، بل ونستمد قوتنا منك وأنت بالمنفى..

قلت له ساخرا -: المنفى رائع جدا ، ولكن ليس بدونك، لذا أنا هنا..

قال: - ماذا تقصد؟!.. لقد دمرت نفسك أيها..

قلت -: لا تقل شيئا ، تذكر بأن الرؤية الضيقة تستلزم العبارة الواسعة..

قال -: إذن جئت تبحث عن المكان الضيق والخانق، انه السجن..

قلت -: لماذا تسجن أنت وأبقى أنا حرا وطليقا.

(٥)

كان هدفي أن أبين لهاله، بأنها أجمل من بدر التمام، وبأن لاشيء يليق بها سوى شمس الضحى، وهناك من سيحلم بها بل وسيكون على أحر الجمر للقاء بها لو كانت تشعر، فهي تستحق وأكثر، ولم أكن

مبالغا أبدا ، فقد حدثني أقرب الناس إلي عن جمالها وحلم كل واحد منهم بأن يكون فارس أحلامها ، ولكنني وأقولها بكل أسف: لم أكن أعرف أبدا من هي هالة بل وعمن يتحدثون بلؤم أو بحسن نية ، إلى الدرجة التي أثارت انتباهي كمشاهد فقط، وبالفعل فقد أحسست بوجودها فرحت أتساءل بكل بلاهة عمن تكون، وها أنا ذا أتفاجأ بكونها بعض من كياني الحي والميت في آن معا؟!..

أدركت هالة صدق ما أقول، فاضطرت أن تقبل الواقع، فصارت تعتني بي كأخ حقيقي لها ، وشيئا فشيئا أدركت أن من ستختاره لن يليق بها أبدا ، وبينت لها ما أتمناه لها ، وبأن الحياة أوسع بكثير من أن تضيق وبخاصة حين أكون أنا وليس أمه، معها وحتى النهاية ، فقط عليها أن تختار بعناية ، ترفض من تشاء وتقبل من تشاء.

كنت أشعر بالرضا عن نفسي، فأنا أريد أن يكف اللامعقول عن الظهور وأن يظهر الواقع نفسه بمكوناته ويتكلم، ويقول شيئا عن نفسه بدون إنابة ، أو حتى تضحية مزعومة، انه لمن العار أن يتلقى المحسن العقاب،

و يتجنب المقتول حقا ديمومة الثواب، فيضحي غيره عنه ثم ينسى وينسى، مخلفا وراءه متاهة المتاهات.

صحت عليها:

- أين أنت يا هاله؟.. لقد ضعت وسط الجزيرة طيلة اليوم، لقد كنت هاربة من شيء؟.. لست أدري ما هو؟!.. لقد تركتني وحيدا لماذا تفعلين هذا؟.. هذا غير معقول.. مجرد لعبة وقد تحولت إلى واقع موحش للغاية.. هذا مجرد هروب بل وهروب حقيقي.

اصطدمت بنفس جدار البراءة والطهورة التي فقدت بها رفيقي، حين راحت تعلل:

-: لقد بحثت عنك في كل زاوية، وحتى بين أعشاش الطيور فلم أجدك، وخيل لي أنني فقدتك وللأبد، فرحت أتمنى أن ألقاك ولو حلما هنا..

قلت لنفسي -: ليتك لا تجدينني، فقط لو تفقدين الأمل، و تنسي وجودي من كل التاريخ الذي جمعنا بالصدفة أو بالحظ وحتى القدر.

كنت أحدثها عن فلسفتي بالألوان، عن معنى مقدرة الفنان.. أي فنان مهما صغرت مواهبه، في فهم البنية

الرياضية لألوانه التي يرسم بها، ليتمكن من التركيز الشعري في لوحته التي هي كالقصيدة الشعرية، فكثافة الكلمات الشعرية مثل كثافة الإحساس بالألوان، وبالعكس فكما تعشق الأذن قبل العين بسماع الإيقاع الشعري، فان العين تنقل العشق ذاته للأذن عند إحساسها بروعة البنية اللونية المعبرة.

قالت: ستزورنا بالبيت، وستلتقي بأمي التي تشتاق إليك، وسأريك مرسمي ولوحاتي المتواضعة.. فأنا لم أتخلص بعد من التعليمات المدرسية، لأنني أدرسها باستمرار، ولم أجد بعد كيانا خاصا بي.. ويبدو أنني أحاول هذه الأيام..

قلت لها: - هل تعلمين بأن الصناعة الحديثة، قد سبقت الفهم اللوني للفن المعاصر، تخيلي بأن التكنولوجيا المعولمة قد تفوقت بامتياز على كبار الفنانين، ببساطة لأنها حرة بما فيه الكفاية، فالآلات غير محافظة أبدا، الآلات المصنعة لا تتحفظ أمام معطيات العلم الحديث، فهي تتقبل صاغرة كل تطور ممكن.. وأقصد ألوان الدرجة الثالثة..

ضحكت من وعلقت قائلة: ألوان الدرجة الثالثة.. هذا كلام أسمعه للمرة الأولى في حياتي..

حين قلت لها -: وألوان الدرجة الرابعة، وهي ألوان المستقبل..

قالت -: هذا كثير.. أنت تخترع المفردات كما تشاء.. أنت نسيج وحدك..

قلت لها -: عندما سأزور مرسمك.. سنصنع مساطر لونية كوسائل إيضاح تبين لك ما أعنيه وبأن لا لوحة فنية ممكنة أو حتى رسم بدونها..من اللغة نبدأ..

قالت: - يبدو أنك تحاول تصحيح وضعي من جديد، فهل أستطيع تحمل ذلك.. لقد زهدت من الحياة، ولا أظن بأنني سأعيش بالقدر الكافي.. انه امتحان حياتي.. أشعر بالثقة بما تحدثني عنه ولكنني أشك بنفسي.. فبطريقة أو بأخرى فقد علقت نفسي على الصليب، بل لقد طرقت المسامير بنفسي.. ليتني أستطيع لمس بقايا حياتي من جديد.

قلت – هذا ما سيحدث قريبا.. أنت تستحقين حياة جديدة تليق بك.. كوني واثقة..

لم يعد المكان لائقا لنا ، لقد عشنا معا..ليلة ويوم.. لقد كان كسوف القمر جزئيا ، ومن الضروري أن نعود ، أن نعود الحياة وقد سلكنا فيها أطول الطرق للوصول إلى أقرب الأهداف، هذا ما يحدث غالبا في الحياة.

حين جاءت السيارة الفارهة لتقلنا معا نحو بيوتنا المهجورة ، والتي تنتظر أشباحنا ليكتمل هدوءها المعتاد ، كان ابن عمي (أبو صالح) يشكك بنا ، ويشعر بالأسى، وكأن سوء تفاهم قد حصل فيما بيننا ، فإجازتنا أسبوعية ، ولكنها تمت بشكل قصير جدا ، فكان كلما نظر نحوي أو نحوها وجد أننا لا نشتكي من شيء.. ولذلك زرع الشك بمزرعته:

-: يبدو أن المزرعة موحشة.. بل وينقصها الكثير.. إنها غير مريحة أليس كذلك.. لقد حاولت توفير كل وسائل الراحة فيها..

قالت له: شكرا لك يا أبو صالح.. مزرعتك خلابة وتطل على جزيرة ساحرة.

قلت له -: أستغرب منك.. كيف تغيب عن المزرعة طويلا.. كيف لا تسهر هنا في كل ليلة من الممتع جدا على الأقل أن تتناول طعام العشاء هنا...

لم يفهم شيئا ، حين قال -: أتمنى لكم السعادة.. أنا مستعد الآن للسفر بكم إلى أي بلد تريدون فقط قولوا.. قرروا إلى أي مكان تريدون.. سأوجل كل أعمال الغد وبعد غد..فالأعمال لانهاية لها.. ينتهي العمر والعمل لا ينتهي..سأكون سعيدا لو طلبتم مني شيئا.. يبدوا أن الفنانة (زعلانه)؟..

ردت بشكل حاسم -: لا أبدا ، أنا مسرورة جدا ، لقد قضينا يوما من أحلى أيام العمر ، والفضل يعود لك.. شكرا جزيلا لك..

صمت وهو ينظر إليها بدهشة بالمرآة ويحاول النفاذ إلى مشاعرها الحقيقية ثم سأل:

-: لقد توقعت بقاءكم لأكثر من أسبوع.. لقد قلت في نفسي لن يجليكم عن مزرعتي أكبر (بلدوزر) في هذا البلد؟..

ضحكت، ثم قالت له عاتبة: لماذا لا تسأل ابن عمك؟..

قلت له: - أتعرف من تكون هذه النجمة الساحرة؟..

قال -: لو كنت أعرفها لما تركت أحدا يراها تمشي على الأرض..

علقت ساخرا -: هل تقبل بأن تتزوجها؟..

لم يتردد حين أجاب -: منذ الغد.. سأوقع لها على أوراق بيضاء ولتكتب فيها ما تشاء، ولو على قرار إعدامي..

ضحكت هالة بغنج ودلال وبدا عليها السرور كطفلة، وعلقت قائلة – ولكنني أكبر منك سنا

قال -: هذا لا يهم، لأنك أجمل من كل النساء التي رأيت..

علقت عليه مازحة :- أنت رجل أعمال ولا يمكنك أن تكون إطارا في لوحتي التي أرسمها، فأنت ستجلس في وسط كل لوحة مرة آمرا، وأخرى ناهيا..وهذا غير ممكن..

رد بسرعة -: ساترك كل شيء... سأكون مجنون ليلى وأهيم بالصحراء حيث تكونين..

كانت في أوج سعادتها حين سألته:

-: أتعرف من هي؟..

قال -:قل فقط من تكون وأرحني..

حين قلت له -: إنها باختصار أحد أفراد عائلتنا..

قال -: إذن لنعد إلى بيوتنا.. إلى مزارعنا الحقيقية.. ولا تنسى فالليلة سنسهر سوية..

(٦)

كان قرار هاله أن نعيش معا أسبوعا كاملا، وسينتهي الأسبوع يوم الخميس، ففي بلادنا تتم فيه الأعراس وتختتم عادة بالزفاف، وتكتمل الفرحة التي ستجمع العريسين كيفما كان ذلك، بينما لم يدم لقاءنا أكثر من يومين، فعدنا من جديد إلى السهر في الملهى الليلي كنا نسهر جميعا، كل الأصدقاء وكان

سليمان الجمعة حريصا للغاية على أن نبلغ جميعا ذروة الفرح، فقد جمعنا معا، واخترق قاعدة أن لكل جيل طبيعته وأهوائه، فحيث تغني المطربة المغربية حياة، تجمعنا جميعا الرغبة بالحياة، ما السر في ذلك؟.

حين دلفنا إلى الملهى الليلي المعتاد، كان سليمان حريصا على دخولي بأبهة مصطنعة، كان الصوت محتدما والغناء الراقص في أوجه، وكل الأنظار متجهة نحوهم، وبحرص تام بحثت مع صديقي الرافض لفكرة البحث عن مجرد زاوية مهملة، على الأقل ريثما يحس الآخرين بوجودنا..كان يجاملني بخبث رهيب..

كان أحد الشيوخ يرقص، كمشهد فيه يرقص (كازانوفا)، وحين سألته

-: من هو هذا الرائع بلحيته البيضاء ويرقص كشاب صغير..

قال بانزعاج -: كأنك تتعمد أن أشعر(بالزعل) منك.. انه يعرفك حق المعرفة.. حتى أنه لم يقبل دعوتي له، إلا لأنني ذكرت له اسمك، وعند ذاك لبى الدعوة.. هذا أول فنان في بلدتنا.. أول ممثل رائع نعتز به..

قلت له -: نعم لقد تذكرت.. فمثله لا ينسى أبدا.. لقد تذكرت فانظر ماذا سأصنع؟..

أمسك يدي بقوة، ولكنني أفلت منه بسهولة، ورحت أرقص معه، فهو يعرفني حقا، وحين وشوشت بأذنه قائلا:

-: يا هارون الرشيد، لقد انقضى عهدك.. وانقضى العهد العصملي الأعظم..نحن الآن في زحمة العصر الحديث، بل وفي متاهة المتاهات..

توقف فجأة ثم عانقني بمودة، وعدنا معا إلى الطاولة الكبيرة بكل هدوء، وكانت المطربة حياة قد حيتني بلطف وراحت توجه أوامرها للفرقة الموسيقية من أجل خلق عالم جديد يليق بالساهرين.

قالت – بالفرنسية ما معناه، هل كل شيء يمضي على أحسن ما يرام؟..

قلت -: نعم، بل وخارق للعادة..

جلس بالقرب مني، بعيدا عن الناس الذين يحيطون به بشكل دائم، وراح يصغي لكل إشارة أو كلمة

تصدر عني، وحين شرع بمسد أصابع يديه على فخذيه لينشط عضلات رجليه الواهنتين قلت له:

-: الآن عرفتك.. هل تذكر أمك الرائعة؟.. هل تذكر نظاراتها السميكة؟.. وماذا تعني بالنسبة لي؟..

بدا عليه التأثر ولكنه سأل -: ماذا؟..

حين قلت له -: إنني أعتبرها كأم ثانية لي.. وكنت أتمنى لو أنها حين أخرجتني من رحم أمي خنقتني حتى الموت كي لا أعيش، ولكنها بعكس ذلك لم تفرح فحسب، بل ادعت بأنني وحسب خبرتها، سأكون إنسانا غير عادي...

نظرت إليه خلسة فرأيته يجهش بالبكاء المر، ثم قلت له -: لا تنسى يا أخي بأننا أخوة..

حين تكلم بمرارة قال -: أين كنت يا أخي طوال كل هذه العقود؟..

قلت -: إنها الحياة يا أخي، فوحدها الحياة من يجمع ويفرق..

قال – تخيل يا أخي لماذا كنت أشعر بفراغ كبير، كنت أشعر وكأنني أنتظر شيئا ما، ما هو لست أدري، كأنني عشت إلى هذا الحد بأعجوبة، منتظرا أن أسمع منك شيئا مما قلته لي، وكأنه صوت أمي الذي لم أسمعه منذ أمد بعيد لأن أكثر من عشت معهم، فارقوا الحياة..فهل سأموت قريبا لأنني التقيت بك أخيرا؟.. أذكرك صغيرا ولذا أنا أشعر بالكبر..

قلت -: الموت أهم من الحياة لمجرد الحياة، بينما يعني الموت موت كل المعاني الزائفة، فان أهم ما يمكن أن يحصل قبله ليتم وداع الحياة بوقار حقيقي.. أن نشهد لحظات اعتراف بلحظات الحياة نفسها.. الحياة ذاتها تعترف بمن يعترف ولكن قبل أن يموت ليكون هناك معنى للموت والحياة بآن واحد معا..

فوجئ حين سألته بدون تمهيد ولا مناسبة:

-: هل تعرف يا أخي من هي هاله؟..

رد: هاله.. أنا أعرفها حق المعرفة.. أشعر بأن هذا المكان غير لائق بالحديث عنها

قلت -: قل لي شيئا عنها باختصار..

قـال-: أصـغ إلـي، أنـت شـخص موهـوب، أنـا أعـرف عنـك ذلـك.. أمـا عـن هالـه فهـي حقـا أميره.. رغـم كـل مـا يعرفـه النــاس عــن شــعبيتنا وحبنــا للمــساواة والعدالــة.. ستبقى أميرة بـالرغم عنـا جميعـا.. إنهـا أكـبر بكـثير مـن مجـرد امـرأة فاتنـة.. لا أجـد صـورة تـشبهها، إنهـا امـرأة كاملة الأوصاف، وهناك الكثير ممن يتمنى أن تكون من نصيبه، لقد كنت معلما لها بالمدرسة ولعدة سنوات.. إنها شخصية مثالية في كل شيء..

قلـت لـه -: إن هالـه تطلـب الـزواج مـني بعـد دهـر مـن الغياب..

كانت ابتسامته عريضة وبتثاقل نظر نحوي قال

:- وافق على الفـور.. هنـاك ألغـاز كـثيرة.. قـد تكـون الحياة كلها مجرد ألغاز.. فماذا تنتظر؟..

قلـت -: أنتظـر أن أكـون أصـغر سـنا وأعـود أكـثر شبابا.. أنا أكبرها بعقدين مـن الـزمن ياصـديقي.. كيـف أوافق وهي كما وصفتها امرأة مثالية وتستحق أن تعيش حياة سعيدة تليق بهـا.. سـأقوم باختيـار الـشخص المناسـب لها..

قال – إنها امرأة ناضجة وواعية، ورغم أنني أعلم يقينا أنها لا تبحث عن أحد، فهي تعرف جيدا ما لذي تريده..

أنا أكبر منك بعقد من الزمن، فلو عرضت علي الزواج لقبلت على الفور.. وأنت لم تشخ بعد..

قلت – ولكنني متزوج.. لا يليق بها أن تكون زوجة ثانية..

قال -: هل تعلم.. لو تحدثت معها بهذه الطريقة، فإنها ستتعلق بك أكثر وستتمسك بقرارها.. إنها تبحث عن رباط مقدس تثق به وأقل ما فيه الاستقرار الروحي.. فهي عما قريب ستصبح وحيدة في هذه الحياة القاسية

لم أعقب عليه، حين قال – اليوم خمر وغدا أمر.. سنتحدث كثيرا في هذا الأمر والآن هيا لنلهو ونطرب

لحسن الحظ الصدفة وما يفعله القدر فإننا لم نفرغ من لهونا المتواصل ولعدة ليال، فقد كان ليلنا الخمر، ثم الخمر ويبدو أنه لن يكون هناك أي أمر..

(٧)

اليوم هو الخميس، مثل سائر الأيام التي مضت وأنا معتاد على الحضور صباحا بالرغم، لم اشبع نوما ، عيوني منتفخة ووجهي متورم من السهر ليلا ، ومن شرب الخمر حتى لحظة الإعياء والثمالة..ولم أكد أعد قهوة الصباح حتى فاجأني والدي الحاج بحضوره قبل الأوان، كان النعاس باديا على وجهه والتوتر، جلس صامتا وما أن قدمت له القهوة حتى قال

-: لنشرب القهوة سريعا.. سنذهب سوية إلى مجلس العزاء..

قلت -: من يا أبي؟..

قال -: إنها صديقة بل قريبة جدا من عائلتنا ، لقد كانت تزورنا باستمرار.. أنت لا تعرفها ولكنك تذكر أخوها فهو رفيقك وقد عشتما بالسجن معا.. أم أنك لا تذكره هو الآخر؟!..

قلت -: من هي يا أبي؟..

قال -: اسمها هاله، لقد توفيت الليلة، لقد كانت فتاة شابة وجميلة وعاقلة..

قلت:- اسمها هاله وتموت؟.

قال -: لا أحد إلا ويموت..

قرع جرس الهاتف رفعت السماعة بآلية وجاءني الصوت -: مرحبا خال، أنا المختار.. إنني أبحث عن جدي وقد عرفت أنه في محلك.. أعطني إياه من فضلك..

سلمته السماعة وأذكر قوله:

-: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. خيرا فعلت... تعال فورا.. أجل نحن بانتظارك هنا.. تعال سنذهب سوية.. لا تتأخر.. لا تتأخر..

الدقائق التي انقضت قبل أن يحضر المختار كانت دهرا، وحين جاء كان مخطوف اللون مندهشا بكليته، وحين طلب منه أبي أن يستريح قليلا، ألقى بجسمه بفشل وهو يحاول التراخي فقد كانت جسمه متصلبا ومشدودا بقوة، كان يريد أن يقول شيئا على جناح السرعة:

-: تخيل يا جدي.. لا استطيع أن أصور لك المأساة، لم ولن أصدق أبدا أنها ميتة، أبدا لن اصدق ما رأيت.. إنها لحد الآن تبدو كما لو كانت حية.. فقط منكمشة قليلا وبشكل محتشم.. ويعلو وجهها ابتسامة رضا قدرية، وفيها بعض الأسى وخيبة الأمل.. لقد أخذت وضعية صنم جميل.. ولكنها ميتة بالفعل بشهادة الأطباء.. أما من كان معها فقد تهشم رأسه وتمزق صدره، بينما هي تبدو نقية ولم يمسها أي سوء.. بل وعذراء..

كان أبي يفرك عينيه ليطرد السهد من عينيه وثم قال

—: هيا لنكون أول الناس هناك.. أمامنا يوم شاق وحزين..

قبل أن أغلق المحل وكان أبي والمختار قد خرجا معا يتمشيان بهدوء و يتحدثان بكل التفاصيل، حضر سلمان بعيونه المحمرة وجسمه المحترق من الكحول، فألقى بنفسه علي وضمني بقوة، ثم بكى وبكى حتى لم يقدر، كان يجهش بالبكاء، لا يكاد يصمت قليلا

حتى تجتاحه نوبة أخرى، حين أغلقت الباب، قال سنلتقي هناك ثم تركني ومضى بخفة بالغة، انه لا يريد أن يرافق أحدا منا، وحين غاب هممت باللحاق بهم.

خلال ساعة اجتمعت أمة بأسرها، انه شيء محير للغاية، فأن تموت امرأة في بلادنا فقد ينقضي كل شيء بصمت رهيب، ولكن هاله، ورغم الغموض الذي يلف ظروف موتها بحادث سيارة متهورة، لم يمنع الناس من الحضور في عرس موتها أو جنازتها، إنها موجة غير عادية، موجة تترفع عن التقاليد البالية والأعراف المتحجرة فلا أحد يسأل، كيف وأين ومتى..؟. فالجميع متفق على أنها أسمى من كل الشبهات...لا أدري ما لذي شاهدته خلال تلك الساعات.. هل هو موت حقيقي لها أم حياة جديدة.. ربما كان عرسا لها، وهاهم يزفونها إلى بيتها في المقبرة لتلاقي هناك، عريسها الذي تحب، ففيه صادفت كل الناس الذين لم أرهم قبلا..كان موكب الجنازة مهيبا، لن أقول مئات السيارات من كل شكل ولون، أو أن ألوف الناس وقفت على عملية دفنها بصمت مهيب.

للمرة الأولى يدعوني أبي للمشي في جنازة، أو حضور عزاء، وكان يبرر ذلك للجميع بقوله

-: إن ابني لا يعرف الناس، لا أحد سيلومه.. لقد ضاعت حياته بين الغربة والمنفى والسجن... انه يبحث عن العزلة والوحدة..

-: أمامنا عمل كثير..طيلة أيام العزاء.. هيا معنا..

حين انطلقت سيارة المختار عائدة إلى البيت، كنت أشعر باللوم، لماذا لم أهرب وأختفي وسط الجموع؟.. كنت كمن يفكر بأنه يتظاهر بالخروج، من أجل أن يعود ثانية في خلسة وبعيدا عن هذا الحشد المهول، حيث تتشابه الوجوه المحملقة من صدمة الموت.

سأل أبي – مختار.. أعطني رأيك.. أثق بفراستك..

قال المختار واثقا -: صدقني يا جدي لاشيء غير الحماقة والجهل.. إذا أردت رأيي فان الطبيب الذي كان معها كان خائفا ومضطربا، بل ومخمورا، وربما أحس بسيارة تطارده في البرية الخالية، ففي البراري يوجد الكثير من الناس الأجلاف.. نوايا سيئة وشريرة وذلك بحثا عن صيد في غير محله ومن شدة حرصه وخوفه من

أن يمس شرفهما شيء ما لست أدري.. أسرع يسابق الريح ليختفي عن الأنظار وحدث ما حدث حين فقد السيطرة فانقلبت السيارة ما لانهاية من المرات في البرية الواسعة.

صعقني الشعور بالجريمة الخفية، قلت له:- من هو هذا الطبيب الشهيد؟

قال -: انه صديقك الحميم.. انه الدكتور مازن.. معذرة كل الناس تعرف ذلك..

قلت – انك تمزح.. قل شيئا آخر..

قال والدي: - هذا لا يهم... لقد ماتت الآن.. بل ودفنت بطريقة مشرفة ولائقة.. كما كان ويجب أن يكون فهي تستحق أكثر من هذا..

لقد رأيت هاله، ذات يوم في الحلم، وحتى قبل أن أراها في الواقع بهذا الوضوح في حلم ذات ليلة هادئة، نعم في السجن، لقد اعترضت طريقي، نظرت إلي بحب، تأثرت بها، لقد أسرتني ببراءتها، وجمالها الأخاذ والساحر، أجل كنت مرتاحا ومتساميا في مشاعرها نحوي، ولكنني أبدا لم أكن أشعر بالحب نحوها، فحين صحوت من حلمي الجميل، وتلك الرؤية النادرة

الحـدوث، تـساءلت مـستغربا ، فأنـا لم أعـرف الحـب ولم أذق طعمـه أبـدا.. فمثلـي لـن يحـب أبـدا ، لـست معاديـا للحب، بل إنني أحب لمجـرد الحـب، كـانت الرسـالة قـد وصلتني بالخطأ ، وستمر بشكل عـابر كلحظات حلوة تشبه الحلم نفسه، فماذا يفيدني شعوري بالندم ؟ فأنا لم أعـترف لهـا بـأن الوحيـدة الـتي زارتـني مخترقـة جـدران السجن، زارتني بالرغم من كل الحراسات المشددة من حـولي، عـابرة بطيفهـا عـدة بوابـات حديديـة لا يمكـن اختراقهـا في اليقظـة لتمثـل أمـامي طيفـا في حلـم جميـل، حقا كان الحلم جميلا.

الفصل الثاني

(٨)

أنا الآن في العقد السادس من العمر، على وشك أن أموت، هذا لا يهم كثيرا، كل الناس تموت، وقد يكون موتي سابقا لأوانه، إلا أن الشعور بأن موتي سيكون قريبا، وحده، ظل يلازمني ويقترب مني أكثر فأكثر.. فأنا أذكر أيام كانت أعضائي الفتية في الطفولة تشعرني بالقدرة على الطيران، أما اليوم فذات الأعضاء، أحسها تغيب وتختفي، تضمر وتضمحل، فلا تقول لي شيئا، لقد صرت اليوم بدون عضلات، عدا أن عظامي هشة وخاوية، كل الأشياء القريبة مني تقول لي في شك غريب: ستموت عما قريب، حسنا لماذا نظراتي إليهم مريبة؟!.. أنا أنظر بدقة مزعجة من حولي، أليس

من حقي السؤال عن لحظات موتي القادم ؟!.. حتى أنني ألحظهم يترددون في بقول شيء هم على ثقة من ضرورة حدوثه، فأنقل الشك من موتي أنا إلى الشك في حياتهم هم أصلا، شيء غريب!.. ولكنني سأبقى مجرد شخص يبحث عن عملية تعليم جديدة، وحين أعتقد بنفسي بأن ذلك غير ممكن الآن، فقد فات الأوان، مجرد الاعتقاد ذاته يعني بأنني كنت قد مت قبل الأوان؟..

أنا لا أحب أن أموت من قبل أن يأتي الموت الأخير ذاته، أحب صحبة المجهول حيا، ولا أكره ملاقاته ميتا ذات يوم؟.. هل يوجد فرق؟!..

سأموت قبل الأوان ؟!..لماذا التسرع والخذلان أيضا؟..

قد أكون من هؤلاء الناس اللذين لا يخشون شيئا، فلماذا تهرب مني أقرب أوهامي القريبة، ومنها أعضائي، وعضلاتي وعظامي، بل وحتى ركبتاي الجبانتين، لقد أصبحتا تهتزان لأقل صدمة تمر ولو كان مرورها عابرا..؟..

من منكم لا يعلم حجم معاناتي الحقيرة؟.. كم جعت وعريت وكم تعذبت ولم أرتح بعد من آلام الأيام

الماضـية، لقـد عملـت وعملـت حتـى لم أعـد أقـدر علـى العمل، نعم فالجميع يعرف..

لقـد جعت حقـا، وعطشت أكثـر فـأكثر، حتـى أن العطش صار جزءا مني ومن كياني، فتحول إلى وحش كبير يمتص نسغ حياتي، ويكبر ثم يكبر كالصحراء من عطشي، كل البساتين المخضرة في وهم أحلامي، وكانت خدعتي الكبرى تتمثل في قوافل عابرة ترتدي فراء البشر، وينابيع الصخر، بل وتشرب الغيوم بكؤوس مترعة؟!..

لم أدرك ولسنوات طويلة ما معنى العطش، والجوع.. ما هو العطش؟..

أليوم أنا أقف وجها لوجه مع وحش العطش !.. اليوم فقط، وربما بلحظات قليلة من ليلة أخيرة قد تسبق موتي بقليل، أنا الآن أكتشف سرا كان ينبغي لي أن أكتشفه بالصدفة والحظ، من قبل.. من قبل أن أدفع الثمن غاليا.. بأغلى مما يتصور الخيال..

لو أن أحدا مما أحب أهدى إلي نقطة ضعفي القاتلة ذات يوم، لكنت اليوم أحسن حالا بكثير مما أنا عليه

الآن.. يا الهي.. لقد أحبني أصدقائي بحق، ولكنهم لم يكتشفوا السر في معاناتهم من أجلي، حتى أن بعضهم قرر أكثر من مرة هجراني وللأبد، قطيعة دائمة ولمرة واحدة، لأنني بعد أن أصير رمزا للخير أتحول في لحظة سحرية إلى رمز للشر؟!..

كيف كان يحدث ذلك ونحن نحتسي كؤوس الخمر، فجأة يحدث التحول..

كان صديقي جعفر يكثر من العتاب، وبنبرة حزينة يردد نفس العبارة:

- أنت تشرب بشكل طبيعي، وفجأة وفي ذروة لحظات الصفاء والحب، تنقلب شر انقلاب، بل وتغيب عن الوجود، وحينها تشرع بالشرب المجنون والقاتل، تشرب الخمر كما تشرب الماء، ثم تردد من حين لآخر... أنا عطشان.. عطشان.. ثم نفقدك لمرة واحدة.. أين صديقنا المشرق؟.. أين شعاع المودة والصفاء.. لقد ذهب مع الخيبة بلا رجعة.. حتى نلتقي بك ثانية وقد صحوت من السكر الثقيل الوطأة.. فحياتنا معك تمضي مثقلة

بالإحراج والأسى والندم، والحيرة.. ماذا سنفعل لنحميك.. فأنت صديق..

ذات يوم اكتشفت العبارة التي كان يرددها صديقي بيأس

-: أنت تردد على الدوام.. أنا عطشان.. عطشان..

قبل أن أموت بقليل اكتشفت مقبرة ذاتي، فأنا شخص عطشان ولا أشبع من ينبوع صغير، ولذلك جربت هذه اللحظة أن أقاوم لحظة شعوري بالعطش، بشرب زجاجة ماء، فتحولت قبل لحظة الشر الفتاكة نحو شرب كأس ماء تلو كأس ماء آخر، شربت الماء حتى لم أقدر، ومنذ عقود مضت لم أر فيها وجوه أصدقائي في أواخر الليالي، فقد رأيتهم للمرة الأولى ورأوني، كانوا سعداء بوجودي لحظة بلحظة..

كنا نشرب الخمر، ولا أدري كيف سكرت؟..، لم أعد أدرك فكرة ما، بل لم أعد أعرف كيف أتصرف؟.. فحسب العادة ووفقا للحظ والصدفة فلابد لمثلي أن يهرب ويغيب، بعيدا عن بقية الصاحين، مهما بلغ غباءهم، ومهما احتدت درجة ذكاءهم.. لقد حقدت

وسأبقى حاقدا إلى ما لانهاية على التاريخ الذي صدفة جمعني مع مثل هؤلاء..

أنا أحب..إذن أنا حتما سأتسامح مع الهواء ومع البشر، مع الماضي والحاضر، وحتى مع المستقبل المجهول، لعل وعسى؟.. وماذا بعد..

حدث ذلك معي بعد أن خرجت من السجن، وتبددت كل ثروتي المدخرة من عمل شاق قضيته في الغربة والمنافي البعيدة، وقد فقدت وظيفتي..كيف سأعيش؟!.. إذ سرعان ما وجدت نفسي مضطرا للعمل، وبدون تخطيط واع ولا دراسة واقعية، فأنا بالأصل لا خبرة لي بعالم المهن والحرف الصغيرة، ولسوء الحظ، فلم يبخل علي الأهل بالمال اللازم لمساعدتي كرأسمال صغير، لقد أمدوني بالمال على نحو سريع، وكأنهم يريدون الخلاص من مسؤوليتهم الأدبية نحوي، فلاحقني الفشل يتبعني كظلي، ومن خسارة لأخرى، وكلما غيرت عملا إلا و أخفقت فيه أكثر من سابقه، إلى أن جاء وقت انقطعت فيه كل الإمدادات، وصار الجميع ينظر إلي نظرتهم إلى

إنسان مسكين وبائس منحوس، وشيئا فشيئا قست قلوبهم نحوي حتى صرت لا أستحق شفقتهم.

أجل لقد انهار كل شيء، وتحطمت كل آمالي بحياة أفضل بعد حياة السجن، فلم أتمتع بالخروج منه سوى أيام وشهور قلائل، وعاد الزمن والمكان يملأ صدري بمشاعر ضيق لا تختلف عن زمن السجن السرمدي، وزنازينه الضيقة كحلقات معدنية في شرايين القلب، تتقلص من حين لآخر، فأشعر بالنفور والخوف الخفي.

كانت مشتقة مزاجي وخوفي العميق من المستقبل المجهول، تزداد كلما انقضى يوم، وتزداد أكثر كلما غابت شمس يوم، وحل علي الليل البهيم، وتبدأ هواجس الريبة تهاجمني كأشباح مخيفة، تهددني بالموت فقرا وجو، فذات يوم سأكون ملقيا على قارعة طريق مهجور، ومدهوسا من سيارة رعناء متهورة، ستسحقني بقسوة باردة.

الصورة التي لا تفارق مخيلتي هذه الأيام وكلما طال الزمن الصمت، وتكررت المشاهد الرتيبة بشكل

متباعد، صورة النهاية الحقيقية، لجثة طائر كان يزين الفضاء بطيرانه وهي ملقاة بإهمال، وتنتظر التحلل والزوال، أو صورة قط فقد أرواحه السبع، حين سحقته سيارة سكير مراهق، أو مجرد همجي عدواني، أو معاد للبيئة، وربما بالصدفة.

لقد أكلتني الأمكنة الخالية من كل شيء إلا من جسدي المتهالك، وأصابني الغثيان من حياة الوحدة، والعزلة عن الحياة بفرح بين البشر، فلم أعد أفرق بين موتي وحياتي، أي حياة هذه التي أعيشها وليس بها أدنى مظاهر الحياة؟!.

لابد من عمل شيء، لابد من الخروج من هذه الحياة المحصورة في محيط دائرة مغلقة، وهي دائرة ذات شعاع صغير، شعاع لا يدعني للحظة أتنفس بعمق، لأن الجو خانق، بالبرد والظلال الشاحبة، وعجاج مترب؟!.

توتر الوضع، فأصبحت العلاقة مشوهة، بل وممسوخة بين جسدي وروحي، وبدت عليهما نذر التصادم، وافتضح سرهما، وبدا الخلاف فيما بينهما

يظهر للعلن، بعد أن كان سريا للغاية؟!. وغير قابل للافتضاح.

إنها روحي المزعجة، وهي روحي الثائرة التي ناصبت العداء مع جسدي الخادم الطيب، فراحت تتسلط عليه، وتتفنن في تعذيبه، فتحمله ما لا يطيق مكرها، كان جسدي المطيع يترنح من الألم، من تحمل نزوات روحي العبثية، بينما أنا لم أعد هو أنا.. إنني شيء آخر شيء غامض يصعب فهمه، كذات ممزقة مثل أي خرقة باليه ويصعب على أكبر الفنانين، إعادة صياغتها لتكون نضرة، لأنها باهته، فألوانها شاحبة ومرتجفة..؟!.

فيما مضى، كان جسدي قويا جدا، وكان على استعداد لتلبية كل رغبات روحي النافرة وسط اللوحة، إلى حد إن قبضة يدي تضرب الجدار الإسمنتي فتترك عليه علامة القوة، ويحدث أن يتكشم جلد ظاهر يدي، وتتقطع بعض الأعصاب الصغيرة، وتنزف دما، وسرعان ما تتجدد وتبرأ خلال أيام قليلة ؟..

أما في هذه الأيام فثمة شبح من الخوف الخفي، وعلامات من القلق تصدر عن جسدي، فهو يتمايل حينا،

ويوشك أن يسقط على الأرض، بل ويضطر أحيانا للمشي وهو نائم، ومرات ومرات يقف وتمتد يدي بصورة عفوية لأستند على الجدار، ولكي لا أهوي من على السلم، أو أنزل من رصيف، حتى أن لساني ينطق ببعض الجمل المستغربة، يختلج جسمي مندهشا بأسره؟..

-: هذا غير معقول..

أحس بفظاعة الحياة التي أعيشها في كل لحظة تمر، كم أخشى اللحظات القريبة القادمة..لقد أصبح الخوف يسكن في تجاويف قلبي إلى الدرجة التي أندهش فيها عندما أدير جسمي فجأة إلى جهة ما، من القلق الشديد والخوف من المستقبل المجهول..

أعبر الطرق من شارع لآخر، أسير من غير هدف ولا غاية، لأنني بالأصل خرجت من المنزل لمجرد الخروج.. إنني أعيش حياة سجن منعزل عن الحياة، وحين أنقل خطواتي ولا أعرف إلى أين.. كثيرا ما أتتردد وأحتار.. هل أعبر إلى الضفة الأخرى من الطريق.. كأنني أصنع شيئا حين أجتاز الطريق..كأنني خرجت من تيه، ولكن نحو ضياع أكبر..في الساحات الدائرية غالبا ما أدور حول

محيطها عدة مرات لكي أقرر أي الاتجاهات أسلك.. هنا في البلد، مثل (قل هو اللّه أحد).. لا أحد يساعد أحد.. الجملة منطبعة في جبهتي الأمامية، تقفز بين الفينة والأخرى لتحتل شاشة النظر كلوحة مخطوطة مكتوبة بحروف نارية وجهنمية، لماذا يهدر الإنسان ماء وجهه؟.. لماذا تهتز كرامته؟.. النتيجة معروفة سلفا، حظك سيء للغاية.. لو جئت قبل قليل.. لو جئت بالأمس.. لو جئت قبل أيام..مع الأسف.

من الحكمة بل ومن الأفضل لي أن أسلك الطرق الخالية من المارة، الدروب التي ليس فيها أضواء ولا ضجيج، أو زحمة سير، والفضل أن تكون مستقيمة وبعيدة..

هذا ما كان يحدث باستمرار..

(١)

كثرت الأحاديث هذه الأيام، فالناس تضج شاكية من ظوهر غريبة لم تكن مألوفة فيما مضى، حتى أن

تعابير من مثل، نهاية العالم، أو العالم أصبح مقلوبا، صارت تترد بكثرة من أفواه ذات ألسنة، ولكنها بدون أسنان، ولا أحد يدري مدى صحتها؟!.

كان أحد السكارى، وأصادفه في كل يوم تقريبا، لأنه يعود ثملا إلى البيت بشكل مبكر، فهو ينام كالميت وقت العشاء، فبمجرد أن تغيب الشمس، يبدأ البحث عن الكحول بالرغم أن لاشيء رخيص هذه الأيام حتى الكحول الرديء، وهو يتدبر ثمنه بطريقة غريبة ولكنها مستمرة، فهو محتال ظريف، يسرق الآخرين بمبالغ صغيرة لا تهلكهم، ومن الغريب أن يجد باستمرار من يعطيه لطرافته، فهو شخص وسيم الشكل، متوسط القامة وروماني الرأس، كأنه احد الأباطرة التائهين وقد يمكن له أن يكون شيئا آخر أكثر أهمية لو امتلك نفسه قليلا:

-: هل رأى الحب سكارى؟!..

يغني بصوت مرتفع، وكأنه يخصني بهذا المقطع ثم يضيف بكل صلافة:

- نحن أمة السكارى والسكّرانين بخمر ومن غير خمر..

يطيب لي مماحكته فأقول له ساخرا:

-: من سكر من خمرة اللّه لا من خمرة العنب يا علي..

حينها يرد علي بصوت معبر وحزين:

-: من أين لي خمرة العنب؟!.. خمرة العنب باهظة الثمن.. أليس كذلك.. أنت تعرف ذلك حقا.. وخمرة اللّه غايتي، فكيف لي أن أبلغها؟.. لا طريق سوى الموت المبكر للوصول إلى خمرة اللّه.. إنني اسلك أقصر الطرق أليس كذلك؟.. وعن طريق هذه السموم العريقة..

حين يكون عندي متسع من الوقت، يمكنني إشباع فضولي منه، عن طريق الإصغاء إلى إجاباته الظريفة، ولذلك سألته هذه المرة عن سر بقائه هنا، في هذه المدينة أجابني بصعوبة:

-: قد تكون الحياة سهلة هنا في هذه البلدة وهي الواقع الحقيقي، بينما الأفلام العالمية تصور الحياة في البلدان الراقية بشكل صعب وقاس.. فالبؤساء أشد

بؤسا..صدقني وتصبح على خير.. أن الإنسان هو الإنسان حيثما كان، وحظه وقدره يلاحقه أينما كان، والبؤس هنا وكلما اشتد فهو أخف وطأة من هناك..وتصبح على خير..

حين ألاحظه وقد أوشك على النوم، أدفعه دفعا للصحو ومواصلة السير نحو منزله، ولكنه لا ينسى دائما أن يطبع قبلة على جبيني قبل أن يختفي في الظلام الدامس، فيتركني أعيش صراعا خفيا مع نفسي، هل هذا نفاق ظاهر أم تعبير صادق؟..، وفي كل الأحوال فقد تعبت من طلباته الصغيرة كشحاذ طريف، لقد كنت أتمنى أن أراه يعمل ليشبع نزواته وآماله الصغيرة، بالاعتماد على نفسه، ولكي يستقل بنفسه، وليكون أكثر حرية فيما يفعله بنفسه، وحين أتذكر تلك اللحظات القاسية عليه، وقد طارت أشعة النوم من عيونه الحمراء المتورمة، والدماء المسودة في مختلف ثنايا صفحة وجهه، حيث تنطبع حروف وكلمات ورموز حرب ضارية عليه، مسطرة بشكل نافر على وجهه، وهو يبدوا في النهاية راضيا ومستسلما لقدره، فقد تعود أخوته بشكل

يومي ليس على عودته ثملا وهو يبحث عن لحظة النوم كالميت، ليجد حوله من يلكمه ويتدرب على جسمه بتوجيه الضربات القاتلة على صدره وبطنه، أو الصفعات على وجهه، والركلات على ظهره ومؤخرته، تأديبا وانتقاما، أو تطهيرا له كما يدعي أخوته، ولكنهم بدون أدنى مشاعر الندم يلاحظون أن وقوعه بين براثن السكر وبراثنهم الدببة المتوحشة، ستؤدي إلى سقوطه لوحده، على الحواف الإسمنتية، أو الاصطدام بأنبوب ماء، أو التعثر بعتبة أو درج، فيتهشم وجهه وينزف ثم يجمد دمه، وكأنه يرفض أن يموت أو شيئا سحريا يحفظ حياته، وكأن لم يكن، فلا تجده يحمل الضغينة لأي أحد من أخوته، لأنه بكل بساطة لن يتذكر شيئا مما حدث له ليلة البارحة، ولأن اليوم الجديد هو نهار آخر للوصول إلى نهاية الحياة.

كم أشعر بالندم لأنني الآخر الذي كان يصفعه معنويا، لأنه كان يلومني على إغلاق محلي، وهو بحاجة إليه، من أجل أن يستأجر فيلما سينمائيا مشوقا، من الأفلام الهندية بشكل خاص، لأنها طويلة ولا تنتهي

أبـد ، ومـشاهدها قاسـية وعنيفـة ، بـلا شـفقة أو رحمـة ، يستعبد فيها البشر بعضهم بعضا ، بمتعة بالغة ، وحيث لا يتبقـى لهـم سـوى لعـق دمـاء البـشر مثـل مـصاصي الـدماء ((فامبير))، أو أكلة لحوم البشر (كانيبال).

كـل القـصائد والأغـاني العاطفيـة المـؤثرة وبحـر الـدموع المرسـلة كشلالات أو ينـابيع متفجـرة مـن خـلال الصخور ، وهو مـا سـيجعل داوود يـشعر بعقـم سـيمفونيات مزمـاره الحـزين، لأن الحـزن ليـل طويـل ولا ينجلـي أبـدا ، والخـراف تائهـة مرتعبـة مـن هجمـات الـذئاب الـشرسة ، لا لشيء سوى الرغبة بالفتك.. والفتك السري الغامض.

-: لمـاذا أغلقـت المحـل؟.. أنـت أفـضل شـخص في هـذا الحي؟.. أنت إنسان.. نعم إنسان...

-: لقد أغلقته بكل بساطة لأنك وأمثالك زبائني..

لم أرى بحياتي علامة استغراب كبرى تحتـل صـفحة وجه مـا ، وكأنهـا بـدر التمـام أو شمـس الـضحى بمثـل مـا رأيتــه مرتــسما علــى صــفحة وجهــه الــسماوية المعكــرة بسحب الدماء السوداء الجافة.

واليـوم، ـ﴿ هـذا اليـوم بالـذات، فوجئـت بـه قـد غـادر الحيـاة ليرجـع مـن جديـد، ليـصفعني بـشكل ظريـف، ويهاجم معنويا كل شيء، نعم كل شيء.

لـن أراه بعـد اليـوم، فقـد توقـف كبـده أو قلبـه، أو روحه لست أدري، ولكن جسده صار شيئا بلا حراك، فلم يعد بإمكانه التحرك، لقد أراح نفسه وأراح أخوته من رياضة الضرب اليومي؟..

جميل ولكن؟؟!!..

لقد قرر أهله نسيانه بالمرة، ولذا قرروا بكل حرية أن لا تقام فاتحة أو مجلس عزاء، لكي ينسى بسرعة بل ولتطمس بسهوله آثار وجوده في يوم ما..

(٢)

عندما تشتد ظاهرة الثراء العاهر، ويتسابق بشكل محموم، الأغنياء من التجار والمتنفذين، ويسعون بوحشية إلى امتلاك كل شيء، فإنهم سيهجمون كالجراد،

تماما كالجراد.. عندها تصبح المدن والقرى وحتى الأرياف البعيدة، قاحلة ليس فيها اخضرار، وعندها تظهر على السطح، وكالأعواد اليابسة، وهنا وهناك أكوام من حطب لا نسغ فيه، وهو أقرب إلى التحجر، منه إلى الحياة، وهي أكوام منبثة في غابة وحشية جردا، فكلما زاد عهر الأثرياء، صلافة وبدون مبالاة، وأغلبهم لا رحمة في قلبه ولا شفقة، اشتدت ضراوة جوع الفقراء، مسلوبة إرادة الفقراء، فهم لا يعبرون عن حقيقة آلامهم، من الحياء تارة ومن الخوف تارة أخرى.

في كل يوم أعبر من منطقة باردة إلى أخرى أكثر سخونة، وكأن هذا التقليد اليومي هو بعض من تفاصيل قدري اللعين، حين أقترب مترددا من ذلك المحل ؟!..

كانت إحدى تلك النقاط الساخنة، ذلك المحل الصغير، الذي يقع على طريق ضيق يفصل بين شارعين مزدحمين، وهو دكان بقالية متواضع، يرتفع عن الطريق بعدة درجات، وهو منحشر بضآلة، بين محلين كبيرين، أحدهما مطعم كبير فاخر من طابقين، ومقهى على رصيفه، والثاني مجمع كبير من عدة طوابق

لبيع الأثاث المنزلي، كانا يطلان على شوارع رئيسية، بينما الدكان المربع المندس بينهما، يختنق من مجاورته لهما ولا يتنفس إلا من مقابلته لأرض خاوية مسيجة، بجدار غير مرتفع، بحيث تطل عليه مجموعة من العمارات، والشمس طيلة النهار، ولذلك زرع صاحب المحل بضع شجيرات، ومنها نبتة المداد، أو الليف، وهي نبتة تتعر بش على خيوط لتصل إلى السقف، وهو يسقيها باستمرار، لتنمو بسرعة، لتحجب عنه قليلا من الضياء والوهج الحارق في معظم فصول السنة، كان الحوض ضيقا، ولكنه بطول ذراعين، ولذلك غرس فيه شتلات ريحان وشجيرة ورد جوري، وبعض الزنبق ذي الأوراق العريضة الخضراء، تخرج من بينها أقماع الزنبق الأصفر، وما زالت العريشة مربعة وصغيرة، ولا تكفي ظلالها لتغطية سوى شخص واحد، هامته صغيرة وضئيلة الحجم بحجم عقاب، كان عقاب نحيل الجسم، صغير القامة، ولأن صديقه من سكان الحي، كان ضخم الجثة، سمين وكرشه منتفخة، فكان يتبادلان المزاح، فكان يدعوه بالديناصور، بينما كان الآخر يدعوه بفرخ

الديناصور، فالتقط مزاحهما أطفال الحي، فصاروا يدعونه أحيانا، (عموه فرخ الديناصور) أو بلثغة وتأتأة مثل (فخ دنصور)، وكان يضحك فرحا و يهتز بعصبية، فهو يحب الأطفال، ويتصرف معهم بحنان بالغ، ويطلب منهم أن يعيدوا عليه أسمه مرات ومرات وكان يضحك بنفس الحماس.

كان عقاب في الحقيقة معوقا، منذ ولادته، فهو يعاني من وجود فتحتين في قلبه، فلا يستطيع تحمل العمل الشاق الذي يتطلب مجهودا، وبموجب ذلك فقد تحصل على قرض صغير من دائرة البطالة، تمكن من خلاله تأجير هذا المحل المهمل، فاستثمره بشجاعة، وأصبح المحل حيويا، بينما كانت قد ذهبت قروض كبيرة إلى الجيوب العامرة أصلا، ولم تظهر حتى يومنا هذا، أي فائدة منها، لأن معظم تلك المشاريع كانت وهمية بالأساس، الأمر الذي لم يوسع السوق، ولم تكبر أو حتى تدور عجلته.

كان عقاب يعمل منذ الصباح الباكر وحتى منتصف الليل، وكان يصنع القهوة في كل ساعة،

فركـوة القهـوة والفنـاجين تغـسل بعنايـة علـى الـدوام لا لترفع جانبا ، بل لتتجدد القهوة المرة ، مـرات عديـدة ، لأنـه يـدخن بـشراهة ، ويستـضيف عـشرات الأشـخاص يوميـا ، فماذا سيكون لو أنه حول المحـل إلى مقهـى بـسيط ؟ هـل كـان ذلـك سـيكون أفضل مـن البقاليـة ، فـالجواب: لا ، لأن الضيافة وشرب القهوة المجانية شيء آخر.

مجرد المرور مـن جانبـه وإلقـاء التحيـة عليـه ، سيقـسم عليـك أن تـشرب فنجـان قهـوة ، ولأن معظـم زبائنـه مـن أطفـال الحـي ، الـذين يخـدمون أنفـسهم بأنفـسهم ، فقـد كـان عقـاب متفرغـا لعـابري الـسبيل ، الـذين يـشرعون غالبا في حكاية قصصهم عليه ، وهـي قصص تجعلـه مـع القهـوة والـدخان يبـدو ثـائرا ، بـل وناقمـا علـى الانحطـاط الأخلاقـي الـذي يـسود المجتمـع ، فلـم يعـد هنـاك محبـة أو روح أخوية ، وهـو يكـرر القـول دائمـا باستغراب:

-: يا للعجب.. لم يعد الأخ يـزور أخيـه ، أ و حتـى يـسال عنه ويطمئن عليه..

ويختم حديثه من حين لآخر بالقول جازما :

-: لا تقل لي، ولا أقول لك، الذنب هو ذنب الآباء، لم يربوا فينا المحبة والشعور بالأخوة.. لم يبقى احترام.. لا بين الكبار ولا بين الصغار.

كنت كلما مررت بجانب محله الهادئ، إلا وجذبتني شتلات الريحان العطرة، فأتجه نحوها أمسد أوراقها بيدي وأشتم رائحتها النفاذة، فأحس بالانتعاش، فيتقدم عقاب مهلل، ويقسم بأن أشرب القهوة عنده، ثم يعدني ببذور النعناع، وهي ستصله قريبا، فيضطرني للجلوس معه وتبادل أطراف الحديث، وبعد أن حدث ذلك لمرة ومرتين فأكثر، فقد تعودت أخيرا على زيارته بشكل يومي.

لم أكن ممن يحبون ارتياد المقاهي أبدا، خوفا من الوقت الضائع، وحياة الرتابة، واللهو بدون معنى، وذلك بالعيش منعزلا بعيدا عن حياة الناس، بينما في دكان عقاب، أسمع الأخبار المحلية وكل ما يتعلق بالحي، عن طريقه هو أو عن طريق زواره العابرين، وكأن هؤلاء الناس، يدفعون مقابل فنجان القهوة حكاية ما، مما يثير الاهتمام والتشويق لمعرفة التفاصيل.

العادة التي تنشأ في بلد ممل، والحياة فيها مملة، مكررة ورتيبة، يصاحبها شكل من أشكال الإدمان، فما أن يحل المساء، وتخف الحرارة الفظيعة قليلا، ثم يبدأ الإحساس بالفراغ وتحين ساعة يصبح من الضروري أن يخرج الإنسان من مغارته ليتهوى قليلا، وليمرخ جسده، وربما ليمارس اجتماعيته، فكل إنسان بحاجة لغيره، بحاجة إلى مجاورة الآخرين، ليعبر عن نفسه ويستمع إلى غيره، وقد يحدث مثل ذلك في كل الأوقات، في الحر والبرد في الثلج والرياح العاصفة والمطر، وحتى في الشمس المحرقة، ولذلك حين أفكر بتغيير تلك العادة ولو لمرة واحدة، يرن جرس الهاتف فاسمعه يهتف داعيا

-: لقد جهزت القهوة، هل أشعل النار.. بانتظارك.. لا تتأخر.

حين أصل وكالعادة، أجده قد فرغ من تنظيف الشارع الصغير من كل النفايات، يشطفه بالماء حتى يصير مغريا بالجلوس على رصيفه الرطب والمبلل بالماء، ثم يضع الكرسي في الخميلة الصغيرة، وما أن يرتاح

قليلا وتحين ساعة القهوة والدخان، وتبدأ لحظة القلق، فلم يحضر أحد بعد.

كان كالعادة يخف لملاقاتي، وببسمته الطفولية المعتادة، والتي سرعان ما تلبس قناع الاستياء المكبوت، حين أسمعه يقول متعجبا:

-: هذه البلدة لا تعاني من الركود وقلة العمل، فلا شيء يشبه حالتها غير حالة فرض حرض التجوال، الحارة هنا خاوية.. ولا أحد يطل برأسه.. صدقني أنا هنا منذ عصر هذا اليوم... الحارة خاوية..

قلت له مشجعا:

-: هذا لا يهم أبدا.. طمئني عن أطفال الحارة.. هل يأتون إليك كالعادة؟.. الشيوخ سينامون طويلا..

حين يرد علي بنفس خفته الأولى ضاحكا:

-: لا.. إلا الأطفال فإنهم ولا أحب ذلك، فهم لا ينامون..ليتهم ينامون قليلا ؟..

(٢)

عندما وصلت هذا اليوم، لاحظته قلقا ومضطربا، لم يكن قادرا على إخفاء مشاعره المتوترة والغاضبة، وكان يتوقع مني أن اسأله عن أسباب انفعاله الزائد، لذلك شرع يطلق الشتائم والسباب العامة، على الحياة والقدر، ثم يقرر لعدة مرات، أن لا عدل في هذه الحياة أبدا، وهاهو يستجمع أفكاره الآن وراح يسأل

-: أسألك بالله.. بال... لا أدري بماذا !!.. هل توجد في هذه الحياة مشاعر أخوة؟..

حين يكون السؤال عاما، يكون ناقصا، فلم افهم بعد شيئا، ولذلك لجأت إلى حالة الصمت الايجابي، واكتفيت بالقول

-: في الحياة يوجد كل شيء..نعم كل شيء..

- تخيل هذا اليوم بالذات سافر اثنان من أخوتي للعمرة..

حين لاحظ استهانتي بالمشكلة، وعدم استغرابي، فأنا لم أبد أي اهتمام لما يقوله، ولذلك حاول أن يفهمني الأمر بشكل عصبي وقلق فراح يتكلم بشكل غاضب:

-: هذا كذب فاضح، هذا نفاق..أولادهم جائعون، أولادنا جائعون وعراة.. إن على الإنسان أن يكفي نفسه وأهله أولا، وبعد ذلك يفسق ويتظاهر بالفخفخة والكذب..

عندما ناولني فنجان القهوة، كاد أن يسقط من يده التي ترتجف من الغضب، وراح يقول متشائما:

-: والله لن يقتلني سوى أخوتي هؤلاء.. هؤلاء المجرمون..

كنت أظن الأمر عاديا، حتى أفهمني بأن أخوته سيلجئون إلى طلب مساعدته، كلما حلت بهم ضائقة مادية، ففي العام الماضي خسر عشرات الآلاف من الليرات ليدفع عن اثنين من أخوته ذهبا للعمرة عن طريق الاستدانة من أشخاص آخرين، وعندما اشتدت المطالبة بسداد دينهم، فقد اضطر للدفع عنهم، وهو اليوم يضع

يده على قلبه خشية أن يلاحق دين جديد، بعد أشهر من عودتهم.

في هذه الأثناء ظهر الحاج محمد الأمين وبرفقته أحد أعوانه، وبدا عليه أن يقصد محل عقاب، فنهضنا لتحيته، كان يبدو عابسا ومقطب الجبين، على غير عادته، في رسم بسمة هازئة.

كان المرابي الأول الحاج محمد الأمين، من التجار الفجار، وكان أسطورة الحي الذي نعيش به، فهو يستولي على كل شيء، ففيه كل العيوب(السبعة) - كما يقال – ولكن هذا العدد قليل بحقه، وكان من الخفة والانتباه، بل والحذر الشديد، بحيث لا يفوته شيء مطلقا، فهو شديد الحساسية، يقرأ الوجوه من حوله، ولقد تعود على أن تكون قراءته صحيحة، وكأنه لا يخطئ أبدا.

حين يلتقي معظم سكان الحي، وفي كل حين، فلا بد أن يكون الحاج محمد أمين، احد أهم مواضيعهم، وتكون سيرته حامية الوطيس، مابين شاكر وممتن له، وبين ساخط ناقم عليه.

كان الجميع متحفزا، حين تكلم الحاج محمد الأمين سائلا باستغراب:

-: ماذا تريد من أمك الفقيرة ؟.. لماذا تشتمها وتهددها ؟..

كان رد عقاب عنيفا:

-: أمي ليست فقيرة أبدا، أمي لئيمة وبنت..، إنني أدعو عليها كي تموت الآن..أمي عنصرية..أمي تفرق بين الأخوة، وتميز بين الأولاد..تنافق لبعضهم، وتطرد البعض الآخر.. هذه ليست أم..

حين وجد الحاج محمد الأمين نفسه أمام مشكلة حامية الوطيس، أخذ يتكلم بروية ورصانة:

-: قد تكون على حق يا عقاب، ولكن هؤلاء أهلك، وقد لا يحق لنا التدخل في مشكلتكم لأنها عائلية وتخصكم، ولكنني من باب (الموانة) سأتدخل، في سبيل الله، لقد صعب علي شكوى خالتي من تعديك عليها، فأنت تشتمها وتسمعها أقذع العبارات.. هذه أم.. أليس صحيحا هذا يا جماعة؟ بالله عليكم قولوا الحقيقة ؟!..

كان عقاب صعب المراس، وراح يعرض شكا يته:

-: يا أخواني، أولا أنا معوق، في قلبي فتحتين، وقد أموت في أي لحظة، أنا أعمل بصعوبة.. علي أن أدفع في كل شهر إيجار المنزل الذي أسكنه بعيدا عن بيت أهلي، وإيجار المحل الذي أعمل به، كما على تسديد فاتورتي كهرباء، وفاتورتي ماء، وهم يحتلون محلي ألذي أورثني إياه والدي رحمه الله، والجميع يعرف هذا، وأنا أصغرهم، وفوق هذا وذاك فالجميع يقاطعني، يحتقرون زوجتي ويطردونها من البيت، لأنها غريبة؟!.. أنا لا افهم تصرفاتهم القاسية.. ما ذنب أولادي الصغار.. هل تعلم يا حاج.. لقد مضى عدة أشهر وأولادي محبوسون بالبيت المظلم، حتى أصبحت عضلاتهم رخوة من قلة الحركة والمشي، وحتى اللعب.. هل هذا يرضي الله؟!..

عند ذلك علق الحاج محمد الأمين قائلا:

-: المطلوب هو الصبر.. هذا حق وكلامك كله صحيح، لماذا اليوم بالذات؟..

-: لماذا اليوم بالذات؟. اسألها هي.. لماذا لم تخبرك عن السبب.؟. اليوم مرضت ابنتي الصغيرة، وعندما

عرضتها على الطبيب، وصف لها علاجا باهظ الثمن، وسيستغرق علاجها سنة كاملة، فذهبت إليها طلبا لمساعدتها، فماذا فعلت؟.. لقد طردتني.. فماذا سيكون رد فعلي؟!.. هل سأشكرها؟!.. نعم لقد شتمتها، ولم أترك صفة سيئة إلا وتستحقها، لقد جمعت عليها معظم ناس الحارة.. حتى جاء أحد أعمامي فوجه إلي صفعة، ليسكتني، ثم أخذني جانبا، ليشهد أنني على حق، ولكن ليس بهذه الطريقة..

عدل الحاج من وضعيته على الكرسي ثم قال:

- ليس هذا كل شيء.. لماذا تهددها؟.. ما ذنبها هي؟.. خالتي ليس لديها شيء لتعطيك إياه..

رد عقبة نافيا بحزم:

-: لا، عندها الكثير.. أين أموال أبي؟.. أين بعثرتها!..على السفر والفخفخة الكاذبة!.. والهدايا لكل من لا يستحق.. أما أنا فلم يلحقني منها غير الأذية..

وكعادة الحاج محمد الأمين عندما يريد إنهاء الحديث قال:

-: الآن قدم طلباتك من الأخير..

كان عقبة قد ناقش الأمر مع نفسه، وبدا مندفعا ومتهورا:

-: أولا: أريد حصتي من بيت أبي؟ لماذا أسكن خارجه وأدفع إيجار بيت، في حين باقي أخوتي يسكنون بالمجان، ولا يفكر أحد منهم بمساعدتي ؟!. عليهم أن لا يحسبوا أنني الأضعف فيهم، وهم يباهون بقوتهم، أنا أطلبهم بحقي، صاحب الحق ليس ضعيفا... ثانيا: أريد محلي أو يدفعون لي إيجاره حسب سعر السوق، وثالثا: يردون لي الدين الذي عليهم.. وإذا لم يفعلوا ذلك، فسأجعل أمي تبكي دما..

بهدوء تام، وبابتسامة هادئة عسا أن يروض خصمه قال:

- ماذا ستفعل؟ إنها أمك يا رجل!..لن تفعل شيئا..

قال عقبة بكل برود:

- سأفعل وسأفعل، سأقتل بسكين حادة ابنها الكبير، المدلل عندها، سأجعلها تبكي طوال عمرها..

كان الحاج محمد الأمين يبتسم بسخرية حين علق قائلا:

- ولكنه أخوك الأكبر وهي أمك يا رجل!..

بكل صلافة أضاف عقبة:

- والله وكل كلمة عليها ألله، سأقتله، فهي ليست أمي وهو ليس أخي..وكل هؤلاء الخنازير ليسوا أخوتي، وعليهم أن يعلموا جميعا، أن أسفارهم إلى مكة والمدينة بحجة العمرة أو الحج لن تغسل ذنوبهم، وتقصيرهم عن وفاء ديونهم، هل يجوز لهم الحج بأموال غيرهم.. بالديون المتراكمة علي بسببهم؟!..

انصرف الحاج ومعاونه، وهو يوصيه بالصبر، فلكل مشكلة حل..

حين هدأ قليلا، ناولني سيجارة، رفضت لأن دخانه من نوع آخر، غير الذي أشربه، عندها أقسم علي أن أشاركه التدخين، فرضخت لرغبته، قال:

- الناس اليوم لا يفهمون بغير هذا الأسلوب، فان بقيت ساكتا فلن أحصل على أي حق من حقوقي.

رماني بنظرة ثاقبة، ففنجان القهوة الذي أمامي بقي على حاله، فأقسم بانزعاج ظاهر على أن أشرب الفنجان

كله رشفة واحدة، ليجدده مرة أخرى وحينها توسلت به قائلا:

- يا عقبه هذا هو الفنجان الثاني، والثالث وربما الرابع، لذا فأنا لا أستطيع.. فالإكثار من شرب القهوة يسبب خفقان القلب..

ضحك بعصبية ولكن شيئا من علامات الطفولة بدت على تقاسيم وجهه، تقاسيم لطفل كبير أرغمته الظروف على أن يكبر عنوة، فلو لم يمر عقبة بظروف قاهرة، لكان كل من يشاهده، سيقدر أنه شاب وفي مقتبل العمر.

- يا معلم.. أنت تضحكني.. أنا وقلبي المفتوح فتحتين، أشرب عشرات من فناجين القهوة يوميا، ولا أي يوم من عمري اشتكيت من القهوة... بالعكس.. والله، وكل كلمة عليها الله: ألا تشرب وتزيد تشرب..

هذه المرة أنا الذي ضحكت، حيث لا مفر من الإبرار بقسمه، وهو تضامن معنوي يتطلب من الصديق أن يتحمل نزوات صديقه، وبتحمل بعض الضرر الطفيف في تلبية نزوة من نزواته بأريحية.

في هذه الأثناء وقفت سيارة تاكسي، بجانب المحل، وما أن لمحه عقاب حتى صرخ به:

- تعال أبو حسين.. تعال واشرب القهوة..

أبو حسين من النوع المشغول دائما، هاهو يتكلم بالهاتف الجوال، وهو لا يدري بنفسه، أئن كان قد صافحنا أو سلم علينا، وكان قد جلس بطريقة آلية، بل وتناول القهوة، وشفط منها رشفة، بل ودخن، وأخيرا انتبه لنفسه، يبدو أنه قد شعر بوجودنا فقال:

- مرحبا شباب..

بادره عقبة بالهجوم: - أبو حسين هيا اشرب قهوتك وفارقنا..

ضحك العجوز أبو حسين، وضحكته عبارة عن انفراج شفة بشكل أبله:

- سوف اذهب، ولكن ليس بعد شرب كاس شاي..

ضحك عقبه بصوت عال:

- بعد القهوة تريد شايا، لماذا لانفتح لك مقهى خاص، ونترك الشغل كله من أجلك؟!..

-: لـن أنـصرف قبـل أن أفخفـخ و(أنعـنش).. وأعـبي الطاس..- يقصد رأسه –

علق عقبه ساخرا

-: الطاس ما يعبأ بالقهوة والشاي، ما يعبأ الرأس هو قدح العرق أيها الشاب الصغير.. بالمناسبة عليك اليوم أن تأخـذنا إلى النهـر لتـسكرنا هنـاك، فتكـسب بنـا أجرا..

رد أبو حسين باستياء هذه المرة

-: واللّه لم اشـتغل اليـوم مـا يكفـي لتـأمين الأكـل للبيت..

قمعه مستنكرا جوابه:

- واللّه، مـن يـسمعك سـيظن بأنـك أبونـا أو أمنـا.. أنـا من سيدفع دائما بابا.. هيا اشرب القهوة.. أسرع..

اعتذر أبو حسين محاولا إرجاء موعد السهرة، ولو لعشرة دقائق فلم يسمح له عقبه، فقد اقسم عليه مرات عديدة وقـام مـن حينـه يجمـع الأدوات الموضـوعة خـارج الدكان، وتأخر قليلا لأنـني حاولـت المغادرة فأمسك بـي

من يدي، ثم اقسم بالطلاق أن نذهب جميعا، فاضطررت للرضوخ.

هناك عند ضفاف نهر الفرات، توجد بعض المقاصف الليلية، التي تعمل بشكل موسمي، أي خلال أيام الصيف وهي محلات متواضعة، في أثاثها، وإنارتها، والوصول إليها سيكون عبر دروب غير معبدة، لأنها محلات مهربة خارج القانون، ولأنها تجاور مياه النهر، فان برودتها الطبيعية، وهدوءها، خفقان الماء، ومنظر السماء، وانعكاس الأضواء على سطح النهر، كل ذلك من المغريات التي تجذب السهارى.

كان عقبه يتحدث طوال النهار ولا يمل أو يكل، فهو يسأل محدثه ويجيبه في نفس الوقت، فأخباره وقصصه الواقعية لا تنتهي، ففي كل يوم يروي جميع ما شاهده أو سمعه، أو قام به من أعمال، ونادرا ما يكون مستمعا، إلا في اللحظات التي يشرب فيها القدح الثاني من مشروب العرق، عند ذاك، يتحول إلى مستمع ايجابي، يستقبل ولا يرسل أبدا، ومن النادر أن يضحك بعصبية، أو يقسم بالله، وكل كلمة عليها الله، بل

يكتفي بزرع ابتسامة هادئة على وجهه، طيلة السهرة، ويكتفي بمراقبة جلسائه، يملأ كاس هذا، ويدعو الآخر لتناول شيء من الطعام، ويردد من حين لآخر:

-: المشروب ملعون يا شباب، ولا يقاوم إلا بالأكل..

مع الساعات الأخيرة من الليل عدنا، كان النهر متألقا، والهدوء يعم المكان، وكنت أهتف في داخلي:

-: (سنعود إليك ثانية، وما أحلى أن نعود إليك دائما أيها النهر وفي كل ليلة..)

كان عقبة المعوق قويا بما فيه الكفاية، وكان هؤلاء الأصحاء الأغنياء معوقون أمامه، فلا ينقصهم سوى الاعتراف الصريح له:

- أنت بالحق نطقت.. كرر ذلك.. استمر.. أقنعنا..

(٣)

نعيش أيام الصيف الأخيرة، والجو مازال بعد حارا بالليل والنهار، فقد سجل هذا الصيف أعلى درجات

الحرارة التي لم نشهد مثلها أبدا، وقد رافق ذلك الوضع المناخي القاتل والمجهد، انقطاع في شبكة التيار الكهربائي، يدوم لساعات أحيانا، ويتكرر ذلك لعدة مرات باليوم، الأمر الذي ضاعف من حجم المعاناة اليومية، طيلة شهرين هما تموز وآب، بما يعادل سنة من الشقاء المتواصل، ولشهرين هما من أطول الشهور، حيث تلبد الشمس، وأشعتها اللاهبة على كل السطوح والجدران، فتحيل ملمسها الساخن إلى حجارة فرن وستشعر بأنه لن ينطفئ بتاتا، وكما تتمدد المعادن بالحرارة، فان الزمن هو الآخر سيتمدد في اللاشعور، ويكمن في أعماق مجاهيل النفس، على أن الحر والبرد، هما من الحقائق الغامضة كالقدر.

كانت الساحة المغسولة بالماء، قبالة الدكان، وكلب هبت نسمة أو تحرك تيار هواء، كان الاختناق يزيد، والحرارة تتزايد ولا تأتي لحظة التناقص المفقودة، وحين تعبر المكان الضيق شاحنات صغيرة وسيارات مختلفة الأشكال، كان دخانها يعمر جو المكان، ولا ينقشع بسهولة، فتمتلئ الصدور بالغازات المحترقة، وهي

سموم تقصف أعمار الناس في أقرب فرصة، ولأن الحياة لبضعة سنوات زيادة ليست بالأمر المهم لدى غالبية المتعبين من الناس، فلا وقت لديهم للتفكير في مثل هذه أمور.

كان الصانع عند المعلم عمار ولقبه (قفل)، يشتغل في ورشة لتصليح المكيفات والثلاجات، من الصباح وحتى منتصف الليل، وهي ساعات عمل مرهقة، ولا راحة فيها، ولذا فقد تحولت خلقته على شكل قفل، ومن الغريب أن لا يكون على شكل قفل صدئ، لأن أكثر وقته يقضيه في إزالة الصدأ.

كان الصانع قفل يصر صريرا حين يتكلم

- عمو عقبه، أبو جلال لم يشغل المراوح بعد..

كان عقبة يصغي إليه، لمرة ومرتين وثلاث، ثم يطلب منه إعادة كلماته، وفجأة راح عقبة يقهقه بصوت عال، ثم يضع يده على قلبه خشية الانفجار، مما أثار فضولي الشديد لمعرفة أسباب ضحكه الشديد، حينها التفت نحوي وهو يحاول الاسترخاء:

-: هذا القفل، بلوى من (البلاوي)، هل تعرف ماذا يقصد بـ (أبو جلال)؟!..

لم يخطر ببالي شيء، فالمحل الذي يعمل به ملئ بالمراوح والمكيفات..

قال عقبة على الفور:

- انه يقصد الله، فالقفل الزنديق يسمي الله (أبو جلال)، والمراوح هي الهواء والرياح في الجو والسماء

ضحكت، ثم ندهت على القفل، كي يأتي فجاء مسرعا، ثم علقت عليه بالقول:

- اسمع يا بني قل عن الله ذو الجلال والإكرام، وليس أبو جلال..

كان ينصت بأدب، ولكنه لم يفهم حرفا واحدا مما قلته له، فالقفل لم يدخل أي مدرسة كانت، ولا يعرف حتى كيفية الجلوس بشكل نظامي على نوع من أنواع الكراسي، بل وحتى على الرصيف أو على الأرض، وحين يقعد فلا تميزه إن متمددا أو مضطجعا.

كنا نشرب القهوة وندخن، حين جاء أبو جاسم عم القفل ومصدر رعبه، فلو كان سمعه يقول ما قاله قبل قليل، فانه سيركب في جسمه قفلا آخر من الضرب الشديد، لأنه رجل محافظ ومغلق أكثر من أي صندوق مجوهرات مدفون تحت ارض خربة من الخرائب المنتشرة هنا وهناك.

توسعت الحلقة قليلا، حين توقفت سيارة أبو حسين، وارتفع الهرج وكثر اللغط والمزاح السمج، فلم يعد هناك شيء يستحق الاهتمام، فقط أمنية، أمنية أن يتحرك الهواء.

قال أبو جاسم بعد صمت طويل:

- اليوم هو أول الشهر، لقد شاهدت بالطريق ظهر اليوم، أحد الموظفين وهو خارج من دائرته، وكان يحدث نفسه بصوت مرتفع، ولم ينتبه لوجود ي بل ولا أظنه يحس بوجود أحد، فماذا كأن يقول لنفسه بصوت واضح وهو يعصر جبهته، ويمسح العرق عن عيونه ونظاراته:

- طيب هذا هو الراتب لمصاريف الدخول المدرسي!!.. ماذا سيتبقى لشهر رمضان؟!..

كانت المناسبات المتعاقبة مصدر شقاء حقيقي، لجمهور غفير من الناس في بلادنا، فإذا اجتمعت بداية السنة الدراسية ومصاريف الأدوات المدرسية وهي كثيرة، ولعدد من الأطفال، وحين يحل معها شهر رمضان الكريم، ثم يليه نفقات العيد، ويليه موسم البرد القارص، الذي يتطلب شراء المازوت الذي أصبح غاليا هذه الأيام، حتى أن كل الأسعار بقيت حامية خلال الصيف.

بعض الشقاء أهون من بعض، حينها قال عقبة:

-: أوضاع الناس حقيقة صعبة وقاسية، ولكن لو قلت لهذا الموظف.. تعال وانظر إلى عقبة، فهو يعاني زيادة عن ذلك من دفع إيجارين، وفائدة لقرض واحد واثنين...

حين تشتد الهموم وتضيق الصدور، يحاول بعض الناس التهرب من مأزق التفكير بالواقع المرير، عن طريق صنع طرفة تبعث على الضحك، ابتسم أبو جاسم وهو يقول: اسمعوا هذه النكتة:

- أصيب أحد الأشخاص بمرض أليم، وكان الوقت ليلا، فراح أهله يبحثون عن طبيب ليعالجه مؤقتا، ويخفف عنه بعض الألم، وذلك حتى صباح اليوم التالي حيث سينقلونه إلى المستشفى، بحثوا ثم بحثوا فلم يجدوا سوى طبيب بيطري، فطلبوه ليعاين مريضهم، فماذا قال لهم بعد المعاينة:

راقبوه حتى الصباح فان عاش، فقد عاش، وان زاد مرضه فاذبحوه...

انفتحت شهية أبو جاسم، وصار يقول:

-: توقفوا، هذه النكتة أقوى..إنها تتناسب مع ظروف الغلاء التي نعيشها هذه الأيام.. كان أحد الأشخاص يأكل في مطعم شعبي، فوجد في صحن الشوربة نملة، فاستنكر ذلك، ثم قال لصاحب المطعم: ما هذا؟!!.. فرد عليه مستغربا هو الآخر:

-: هذه نملة، هل تريد أن نضع لسيادتك لحم خروف، من أجل صحن ثمنه عشر ليرات؟!..

ضحك الجميع، ضحكنا من اليأس، وربما كنا نضحك على أنفسنا؟!..

كان أكثر الناس ضحكا عقاب، نفسه، لذا لم يقل شيئا أبدا ، ولكنه قال بشكل مفاجئ:

- غدا ، سأدفع لك دينك يا أبو جاسم، لم ولن أنساك أبدا..

الابتسامة الصفراء الهزيلة لـ (أبو جاسم) تحولت إلى لوم واستنكار:

-: يا أخي هل طالبتك برد الدين ذات يوم؟!..

رد عقاب بشكل تمثيلي ومعبرا عن انزعاجه من نفسه:

- الدين هو الدين، وثلاثة أشهر كافية، نعم تكفي، ولن أنساها أبدا.. لن أنسى خيرك أبدا..

لم يكن في الحقيقة قادرا على إخفاء حزنه، لقد كان يتظاهر بالضحك ولكن بعصبية بالغة، فقد كان يعتقد بأن الضحك وحده من سيحافظ على قلبه من الفناء كمدا ،وكأن شيئا سيحدث عما قريب، ولم نكن جميعا نعلم ما هو؟!.. وحين غادر المكان أبو جاسم، قام عمار بإغلاق المحل فورا ، وصاح بكل حزم:

- هيـا الآن، الفـرات ينتظرنـا الآن، لقـد انتـصف الليل، لنشرب كأسا من العرق، قليلا من العرق لنجدد أنفسنا، أقسم بأن نذهب ونشرب ولو كأس واحد..

عند النهر جلس صامتا لا يتكلم، كانت أفكار سوداوية كثيرة تنغص عليه هدوءه، فيمتعض منها بدون شعور، حتى أن أبو حسين علق عليه ساخرا:

- من يراك الآن ساهما، سيحسب أنك تحمل كل هموم الدنيا على ظهرك؟!.. اضحك يا رجل.. قل شيئا..

يرتبك عقبة ويرد معترفا:

-: نعم والله، وكأنني أحمل كل هموم الدنيا..

كانت النسمة باردة بجانب النهر، ومع الهدوء ونشوة الخمر، فقد أوشك أبو حسين على النوم، فهو من الصباح الباكر يقود سيارة الأجرة، في جو صيفي حار، ولذا فما أن يحس بالبرودة، وتتوقف السيارة عن الدوران، فسيهاجمه النعاس بقوة..

وجد عقاب الفرصة ملائمة للضحك عليه:

-: لا تنم يا أبو حسين، هذا المكان ليس فندقا للأحلام.. كيف سنعود إلى بيوتنا؟!..

ألقى أبو حسين بمفاتيح السيارة على الطاولة وقال راجيا:

- دعوني أنام... لحظات وسأصحو..

كان عقاب حازما حين أنهى السهرة، ودعانا لمغادرة المكان فورا، ومما أعجبني فيه أنه أوصلنا جميعا نحو بيوتنا وهو يحاول الظهور بمظهر الصاحي الذي لن يسكر أبدا، حين وادعنا كان الوقت فجرا، وكان يقول:

- غدا نهار آخر.. سنلتقي من يدري أين؟!.. المهم أننا سنلتقي..

(٤)

كان اليوم هو يوم الجمعة الحزين، وكما يقال فيه قد خلق الله هذا العالم، لأن مجرد الحساب وحده ومن

غير ضرورة أو داع، يسبب الحزن المقيت، وهو ما حدث فجأة!. لقد وجدت عقاب غارقا في الحساب ولعدة صفحات، لقد كان يبيع كل شيء بثمن بخس، فالمهم أن يغير كل شيء في حياته، والأهم أن يسدد كل ديونه المزعجة، وبأي شكل كان، لقد مل وكره من الانتظار، انتظار تغير الحظ ولو للحظة واحدة، نفذ صبره من احتمال أن تنفذ كل البضائع والسلع الموجودة بالمحل، ثم لا يجد فيه بقية تمكنه من سداد ديونه الشخصية، وقروضه البنكية، ولأنه لم يعد يقترض البضاعة من التجار فقد بدأ المستهلكين بالانفضاض عنه، لأن سلعا كثيرة لم تعد متوفرة فيه ولذا صار ينتظر الفرصة السانحة ليبيع باقي الضائع وكل موجودات المحل.

خلال عدة ساعات كان قد انتهى من جرد جميع موجودات المحل، فكان متسامحا إلى ابعد حد، مع المشتري، لأنه في نهاية الحساب، تنازل له عن ربع قيمته النهائية، وذلك كبادرة تدل على حسن معاملته، في البيع

والشراء، وعلى العكس من ذلك فقد كان صارما مع المدينين له.

كان يستعجل البيع، ويريد قبض الثمن بأسرع ما يمكن، فمنذ أيام حين مرضت ابنته، أضطر لاستدانة الدواء من الصيدلي، أما في ليلة الأمس، وكنا نسهر عند شاطئ نهر الفرات، وكنا أربعة أشخاص، ولم يكد كل ما في جيوبنا جميعا، أن يكفي لدفع ثمن طاولة المشروب المتواضعة، ولحظتها أقسم لعدة مرات بأن مثل هذا الوضع لا يطاق، وبأنه لا يمكن أن يعيش بهذه الحالة فلابد من عمل شيء، وهاهو قد فرغ من تنفيذ ما أراده، عند بيعه للمحل، وقبض الثمن فالمهم أن يمتلئ جيبه بالدراهم.

شدني من يدي، قائلا: أسرع، لندرك الفرات قبل أن نجف من العطش.. سنرتوي الليلة وغدا يوم آخر..

وخلال لحظات أوقف سيارة تاكسي، وحينها أصدر أمره بالتوجه نحو المحطة المعتادة، وما هي سوى دقائق حتى كنا هناك، ولكنه كان يجهل لحظة الوصول والهدأة بعد الشقاء!!.

لم أكن ممن يحضرون الدرس قبل إلقائه ولكنني مضطر لإيصال رسالة حقيقية، حقيقية أكثر من المعتاد، فقد كنت قد تغيبت عن عقاب ليلة واحدة وواحدة فقط، وقد حدث فيها ما لم يكن يتوقعه أبدا!!.

حين قلت له بثقة وقوة يقدرها كثيرا، وهو الذي يحاول على الدوام أن يكون صاحيا ويقظا في كل لحظة، لأن كل الأشياء قد تمضي بسهولة، حين يخفى على كل إنسان أن القياس بالمتر ليس كالقياس بالشبر، وكذا الأرض بل وحتى الحياة، فليست كل اللحظات واحدة.

كان عقاب حساسا بما فيه الكفاية، فقد أحس بقوة تثير العجب، بأن سأقوله له بعد حين، يستحق الانتباه، ولذلك سررت بمرآه ينظر إلي بدون أن يحاول طلب شيء، وكأنه كان يبحث بصدق عن صدمة مثل تلك اللحظة، ولم يكن يتوقع منها أن تكون سارة.

-: البارحة، وبينما أنا في العرس.. كانت والدتك ترقص على العكاز، وقد رقصت كثيرا، ودبتك مع الراقصين، وكانت نجمة الحفلة، وكان أخوتك يدورون

حولها كالأقمار، لكنها كانت في عالم آخر، فقد وضعت كرسيها بجانبي، ومن حين لآخر راحت تتكئ على كتفي، وتضغط على كتفي بقوة، وتطلب مني أن أملأ كأسها بالماء، فتشرب من شدة الظمأ، ثم تعود لمكانها، بل وترقص ثانية..

كان عقاب يبكي بقوة، يجهش بالبكاء، ويصرخ بصوت منقبض:

-: أعرفها أمي، أمي كريمة، أمي ليس مثلها أم.. إنني أتذكرها حقا..

عندها تمكنت منه، فلدي رسالة، رسالة مقدسة، رسالة ليس بينها وبين القبر سوى لحظات أو دقائق وربما أيام وأشهر، وحتى لو كانت بضع سنوات.

-: ما سأطلبه منك صديقي، هو أن تخرج كل أم من اللعبة الحقيرة.

حين بكى، بكى من عمق القلب، وحين شبع من البكاء، راح يمسح دموعه ثم أشرق وجهه بابتسامة طفولية معبرة، ثم صار يقسم بأنني على حق، كل الحق.

باع عقاب محله ليتخلص من وطأة الديون المتراكمة عليه، وسدد معظم ديونه وفق جدول دقيق للغاية، فهو يكره الديون، ويتحرج منها، ثم لا يهنأ له بال حتى يعيد المال لأصحابه وهو ممتن لهم، وعندما يحتاج مرة أخرى فانه سيجد من يقرضه مرة أخرى، وعندما تحرر من الدوام الطويل بالمحل، وبقي لديه فائض، أخذ ابنته المريضة وتوجه إلى العاصمة دمشق، فقد حدثوه عن طبيب أخصائي مشهور، وأستاذ بالجامعة، لقد تكبد عناء السفر وتكاليفه الباهظة، فخلال السنوات الأخيرة ارتفع مستوى المعيشة بدمشق، واجتاحتها موجة غلاء فاحش، يصعب تفسيرها، أو فهم أسبابها الحقيقية، ومما لا يفهم كذلك سر تهتك العلاقات الأسرية، حيث أوشكت أن تنعدم روح التضامن بين الأقرباء، لمواجهة تكاليف الحياة المرتفعة، الأمر الذي سيجعل الحياة فردية، خاوية من التعاون لمواجهة قسوة الظروف السائدة.

كلفة معاينة الطبيب هي الأهون، ألف ليرة، ألفان، فلابد من موعد سابق، أسبوع أعلى أقل تقدير، وهذا يعني البقاء لمدة طويلة في فنادق لم يتغير فيها مع الزمن

سوى الأجرة المرتفعة، فلابد من دفع ثمن التعجيل بالمعاينة والخلاص سريعا، وهذا ما حدث، فقد دفع الآلاف من الليرات، وزاد عليها ألوف أخرى لشراء الدواء الأفضل (الدواء الفعال)، ولذا ينبغي أن يكون هو الأغلى ثمنا، وقد اقترح عليه الطبيب المختص، بأن يواظب على شراء الدواء شهريا، ولمدة سنة كاملة، إذا كان يريد شفاء ابنته الصغيرة من المرض، وكان عمار يشعر بالرضا عن نفسه، كلما دفع أكثر وأكثر، لأنه كان يؤمن بأنه يؤدي واجبا لابد من القيام به.

بالشام، كما يسميها معظم الناس مدينة دمشق، فقد قام عمار بشراء لعبة غالية الثمن لابنته المريضة، وأطعمها بأرقى المطاعم، واصطحبها معه نحو المقاهي العريقة، كان يحاول إسعادها بشتى الطرق، فلم يكن يتململ من صحبتها، فكان يحاول أن يعوضها عن حنان الأم والأب في آن واحد، رغم شعوره بالخيبة من وجود أناس أقرباء، هنا، ولكنهم يضيقون ذرعا من زائر يأتي في ظروف صعبة.

غاب لعدة أيام، ثم التقينا ، كان سعيدا بما فعل، وقد بدا متفائلا ، فالأحوال ستتبدل ذات يوم قريب، وهو يقول بصوت واثق:

- كلما ضاقت فلابد أن تنفرج، قربت كثيرا..

قلت له مشجعا :

-: أتدري يا عقاب، أنا أؤمن بأن الحياة ليست سوى الصدفة والحظ..

ردد موافقا لفترة، ثم راح يتساءل متعجبا عن الفرق بينهما :

-: من لديه الحظ ليس بحاجة للصدفة ، فالصدفة هي ضربة الحظ لمن يلازمه سوء الطالع..

علق ضاحكا :- أريد أن تنفرج أموري، وأقبل بأي منهما..حظ.. صدفة..

حين سألته عمن يختاره من الحالتين رد على الفور وبحزم:

-: الحظ يا صديقي.. الصدفة لوحدها لا تكفيني.. فليرد علي حظي وعندها لن أحتاج لشيء.. أنت تسأل فقط!!. ماذا عن اختيارك؟..

كان يضحك بعصبية حتى قبل أن أرد عليه بكل برود:

-: ليتني أحصل ولو على صدفة واحدة..

انفجر بالضحك، كان صدى قهقهاته تتردد بين أعمدة الجسر العتيق، الكتيمة والشاحبة الألوان، ومن لحظة وأخرى يضع يده على صدره، وكأنه بذلك يحمي قلبه من الانفجار والتمزق.

كان عقاب يأمل بالعمل مع مكتب عقاري، كان قد تعاون معه لمدة، وكان يعرفه ظاهريا، أي لم يجربه بشكل فعلي، فقد كان المساعد الأول له، رجل كبير السن، أعور، عبوس، يشيح بوجهه كثيرا، ولا يعير أدنى الاهتمام لأي شخص عابر، فإذا لم يكن في الزيارة صيد ثمين، فلن يكلف نفسه عناء الكلام، ولم تمر سوى أيام قليلة حتى وجدته قد انقطع عن زيارة المكتب، فلم يجد بالكتب ذاك المكان المكيف بالهواء البارد،

ولا الضيافة الأريحية المعروفة عادة عن مثل تلك الأعمال، كان العجوز منفرا له، وكأنه قد وضع بالمحل كفزاعة تنفر الطيور، فصار متشائما من وجوده، الذي يقطع الرزق كما وصفه لي، ولذلك فقد قرر أن لا يداوم فيه حتى يجد طريقة لإزاحة ظله الثقيل، وهو يحتاج إلى وقت قد يكون طويلا

(٥)

عندما كان عقاب في بقاليته الأولى، التي تقع في نفس الحي، على بعد عشرين مترا من بقاليته الحالية، كان قد استأجر محلا صغيرا للغاية، أسفل عمارة مأهولة بالأطفال الصغار، ومنها صار الجميع يسميه عمو عمار، كان المحل فارغا، ومهجورا حين تسلم مفاتيحه، كل حيطانه رمادية بلون الاسمنت المتعطش للندى، رغم ظلمته وشحوبه وخلوه من أي مصباح كهربائي، وخلال فترة وجيزة حوله إلى مكان مشرق ومضيء، وبإمكانيات بسيطة، وزاد عليه مظلة فسفورية ومع

الـدعايات الزاهيـة لمختلـف الـسلع، ومنـذ الـشهر الأول لإحيائـه المحـل المهجـور، والـذي لم يكـن يتوقـع أن أحـدا سيأتي يوما ما ليستأجره كما كان عليه قبلا، حتـى أن الأرملة المالكة له، لم تخفي نيتها بزيادة إيجار محلها في الأشهر القادمة، وكان رده:

-: يا أختي دعينا نـرى خير المحـل أولا.. والخير سيعم على الجميع.

كانت فاتحة سيئة فعمـار يكـره حقيقـة أن يتعامـل مع أي امـرأة كانـت، بطريقـة فظـة، حتـى لـو كـان ذلـك سيؤدي إلى خسارته لكل مجهوده، وحتـى المحل نفسه، ولذلك يحتسب لحظة مغادرته المحـل، لأنـه يكـره الطمـع وبخاصـة حـين لا يـأتي في أوانـه، فمثـل هكـذا اسـتفتاح سيكون بمثابة الفأل السيئ.

كان محله مجاورا لبيت أهلـي، فكنـت أشـتري منـه بعض اللوازم، فتعرفت عليه بشكل أولـي، كـان خـدوما إلى درجـة متواضـعة، متساهلا في بيعـه، وغير متلهف في القبض على النقود، وقد يقـدم للشاري هديـة بسيطة مـن محلـه، يفـوق ثمنهـا عمـا يحـصل عليـه مـن أربـاح البيـع

نفسه، ومرة خرجت على صوت صياح مرتفع، وحين ميزت صوته خرجت مسرعا من البيت، لأجده في خصومة مع أحد الجيران، سببها أحد الأطفال الين يشتكون لآبائهم، دون أن يقدروا عواقب شكواهم، وحين تدخلت في الوقت المناسب أطفأت موجة الغضب المسعورة التي أوشكت أن تتحول إلى معركة دامية، وظهر برهان عمو عمار، حين اعترف الطفل بكل بساطة، بأنه لم يكن يقصد عمو عمار بسوء، فقد ضاعت منه الحلوى، سقطت على الأرض، فراح إلى البيت باكيا، منكرا أنه اشترى أو أخذ شيئا، عند ذلك هدأ الجميع، وأقسم بالطلاق أن يأخذ الطفل ما يشاء مجانا قائلا بصوت عاطفي وأبوي ولكنه عصبي للغاية:

- هذا طفل.. طفل صغير لا يعي ما يفعله.. ليتني رأيته وهو يبكي..

حين اختلى بي، بدا حزينا ولكنه قال:

- سأترك هذا المحل في أقرب فرصة..

لقد عرفته هنا عاطفيا، شديد الحساسية، وعصبي للغاية حين يغضب، إلى حد الطيش والتهور، فهو حين

يفـور ويغلـي، لا يـدري أي حماقـة يرتكـب، ولا يعـي مـا يقوله، من كلمات ساخطة تخدش آذان السامعين، لأنها تنضح شتما وسبا رزيلا، ولكنـه مـا أن يبرد قليلا ويعـود إليـه رشـده يـشرع بالاعتـذار مـن كـل صغير وكبير، بـل وحتى من المارة العابرون، قائلا: انه شيطان الغضب لـيس إلا..

لقـد فوجئـت بـه وقـد انتقـل بعـد عـدة أيـام إلى محلـه الجديد ،وهو المحل الواقع بـين جبلين، بـين المطعـم الفخـم وصالة الأثاث العـامرة، وبـنفس الطريقـة فقـد أحيـا محـلا مهملا، تسكنه الجرذان والصراصير، بل وكـان مجمعا لأكياس الزبالة، وبقايا القمامات القديمة، ففـي البدايـة رحب به الجميع، لأنه كـان نظيفا للغاية ويجمـع الأوسـاخ في كـل يـوم وينظـف المكـان حـول الجميـع، يغـسل ويـشطف بالمـاء، فكـان الجميـع يشكره، ويـضرب المثـل على نظافته وحرصه على خدمة كل الجـيران مـن حولـه، وحين التقيت به كـان سعيدا للغاية.

لم يكد يكمـل الـشهر الأول، وفي صباح يوم شـتوي بـارد للغايـة، بـل وشـديد الأمطـار، ظـل المطـر يـصب طيلـة

الليل ولم ينقطع سوى لفترات صغيرة، كان المكان خاليا من المارة، وحين شعر بالبرد، ضغط على زر المكيف الكهربائي وفجأة وقع انفجار عنيف، ثم لبث النار، والتهبت وراحت تلتهم كل ما هو قريب منها، فعلى الرغم من احتراق معظم الأسلاك، فقد أخذت النار تلتهم بعض السلع وخلال دقائق، صار المحل كتلة من السواد الفاحم وانتشر الهباب ليمرغ كل السلع، كان يقاوم بمطفأة الحريق البسيطة، ولم يكن من السهل عليه أن يسيطر عليها لوحده، ولولا سرعة النجدة ورجال الإطفاء الذين أطلقوا مدافع الماء وحولوا الدكان إلى بركة من الماء لاحترق كل شي، عرفت بالحريق متأخرا وبعد أن غادرت فرقة الإطفاء المكان وهي تملأ المكان زعيقا، حينها رأيته في وضع يثير الشفقة الحقيقية، فقد كان منظره مجللا بالسواد كبقية الأشياء المحترقة في دكانه، كان يبكي بصمت ولا يقوى على الكلام، فقط ينظر بيأس شديد إلى داخل دكانه، يلطم رأسه بين الفينة والأخرى، وينشج بحزن:- انه الحسد، لقد صار الناس يحسدون كل شيء، حتى الفقير لا يسلم من أذاهم..

في تلـك اللحظـات الحـائرة، لا يـدري الإنـسان مـا سيـصنع، فهنـاك عمـل وكـثير، فمـن أيـن تبـدأ عمليـة الإصـلاح والخـراب كـبير، جـاءت الأم الكـبيرة بـسيارة وحـين نـزل الأخـوة والأبنـاء والبنـات مـن الـسيارة، وكـأن فصيلا عـسكريا قـد جـاء تحـت قيادتهـا، لـم تـسأله أبـدا عن الحـادث فهو من القدر، بل شرعت توزع الأوامر

-: هيا انقلوا كل الأغراض إلى خارج المحل، أفرغوه من كل شيء..

لم تلتفت إليه أبـدا، لأنهـا كـانت تريـد أن تمنعـه مـن إطـلاق التعـابير اليائـسة والحزينـة، والمطعمـة بـبعض مـن عبـارات الكفـر وإطـلاق اللعنـات، فهـي تعرفـه جيـدا، والمكـان صار مسرحا كبيرا للفضوليين، ومعظم أطفـال الحارة، وحين بدأ العمل الجمـاعي يظهـر، والمحـل أوشـك أن يفرغ التفت إليه قائلة

-: اشكر الله على لطفه وعنايته بك أولا، وثانيا لأن الحريـق لم يمتـد إلى جيرانـك، وإلا لكانـت الكارثـة عظيمة..

كان يهز رأسه وهو يحاول الابتسام وإظهار الرضا عن القدر، برغم الدموع التي صنعت في وجهه أخاديد

طولا نية سوداء، كان يرتعش ويخفق بشدة ويتكلم بصوت متهدج ومتقطع كالزفير المختنق.

من جديد بدأ يستصلح المحل، أعاد طلاءه، وخلال يومين أو ثلاثة عاد المحل إلى ما كان عليه، فاستقرت روحه قليلا، واسترد عافيته، وارتفعت معنوياته، فعاد من جديد إلى نظافته الأولى، ولكن صفحة وسخة هذه المرة قد بدأت مع الخوف والقلق الذي أحدثه الحريق، فجيرانه أقوياء وأغنياء، وفي محلاتهم مجموعات من الخدم والحشم، والحراس الأشداء، فقد قرروا أن وجود محله بينهما مصدر خطر عليهم وعلى محلاتهم، وهنا تغيرت النفوس المجاورة له، وشرعت تخطط في البحث عن حل مناسب، وهو ما لاحظه في نظراتهم المريبة، بل والغاضبة من وجوده بينهما.

كان العرض الأول قد جاءه من مريدي الشيخ صاحب سوق الأثاث الكبير، ففيهم الطبيب والمهندس والمقاول، كل هؤلاء كانوا يأتمرون بما يمليه عليهم،

وكان قد طلب منهم مقابلة عمار، بحجة شراء أغراضه مساعدته في الرحيل والبحث عن مكان آخر، ولأن العرض كان سريعا، وأعقب الحريق مباشرة، فقد رفض قائلا بكل ثقة وتحد:

-: محلي هو مكان رزقي، بل وشرفي أيضا، وأنا لا أبيع أغراضه بملك الدنيا، ومن يفكر بالاقتراب هنا ثانية، فإما دمي أو دمه..

انسحب الفريق الأول بكل هدوء، ولم يعلق أحدا ولو بكلمة واحدة، فهم لن يتصرفوا لوحدهم بدون إذن من الشيخ فقد أوصاهم أن يخرج لوحده وبرضائه، إن أمكن ذلك.

حين التقيت به مساء ذلك اليوم كان ثائرا، ويعلق غاضبا:

-: تخيل هؤلاء وهم يقبلون يد شيخهم، كلما حضر يوميا، وتخيل فيهم الطبيب والمهندس..

يضحك بعصبية ثم يتساءل مستنكرا:

-: هل حقا مثل هؤلاء يحملون شهادات جامعية؟! انه شيء مخجل حقا.. أنا مثلا لست على استعداد لتقبيل أي

يـد كانـت..اللـهم يـد طفـل بـريء لم تتلـوث يـداه بفعـل خبيـث.. طفـل ملائكـة لم يعـرف الـدنيا بعـد.. هـل يعقـل هذا ؟ هل تصدق أن مثل ذلك يحدث يوميا؟!..

قلت له باقتضاب: في هـذه الـدنيا يوجـد كـل شـيء، فلا تستغرب إمكان وجود أي شيء كان..معقـول أو غيـر معقول هذا لا يهم، فالأهـم أنـك تـراه بعينـك فهـو موجـود.. فماذا يفيد لو قلت عنهم بأنهم مثقفين ولكـن غير واعـين المهم بهذه الطريقة يحققون الفائدة التي يريدون..المصلحة المادية، وتكديس الأموال، أو دينهم دينـارهم كمـا يقـال فهو يحبون المال حبا جما، انه ربهم الحقيقي..

لم يكظم غيظه حين قال:

-: لكم أكره مثل هؤلاء.. إنهم منافقون.. كذابون.. اللعنة على الحياة بدون كرامة.

(٦)

ذات مساء وبينما كان عقاب منهمكا في غسل وشطف المكان، خرج إليه صاحب المطعم غاضبا، وهو شخص ممتلئ الجسم، مربوع القامة يمشي مزهوا بنفسه، و يرتدي بذلة فاخرة، وقف ينظر إليه عابسا وأخيرا صاح عليه: - كفى يا عمار.. لقد طافت الدنيا بالماء..ما هذا الفيضان؟. في كل يوم.. هذا غير معقول..

لم يكن عقبة في البداية يعرف ما يضمره هذا الفنان الواقف قبالته، ويتظاهر بالضجر.

-: نعم معلم.. ولا يهم ولا تشغل خاطرك أبدا.. أبدا، سأنشف المكان بأسره.. النظافة من الإيمان معلم..

حين ضحك بعصبية، ولكن المعلم الفنان راح يصدر أمرا آخر:

-: من اليوم فصاعدا، سنغلق حنفية الماء، لقد تحملناك كثيرا..

لم يترك لعقبة الفرصة ليشرح له، أو يعرض خدماته العامة لصالح الجميع، حين صاح على عماله ومرافقيه، يأمرهم بإغلاق حنفية الماء مرة واحدة..

وجاءوا يتراكضون، وفكوا رأس الحنفية، ثم جروا خرطوم الماء عنوة، وراح عقبة يشتم ويسب الجميع

-: هذه الحنفية ملك لصاحب العقار.. بأي حق تقطعون علينا الماء.. لنسال صاحب الملك.. فهو الذي قد سمح لنا باستخدامه من أجل النظافة.. يا معلم لست أنت المالك.. هذا ليس من حقك أبدا..

رد عليه الفنان صاحب المطعم الفاخر:

-: كفى.. لقد تجاوزت حدودك..وهذا البناء لي أنا.. هل فهمت؟!.

-: لا..لم أفهم.. أنت مستأجر مثلي مثلك.. والحكم بيننا هو صاحب الملك..

كان مرافقوه وحراسه وعماله، مستعدون لتنفيذ أوامره، وينظرون إلى عمار وكأنهم عصابة تنتظر إشارة من زعيمها الذي يتخايل في مشيته كالطاووس، وهو لا يكاد ينظر في عيون خصمه الضئيل..

حاول أحد رجاله أن يتصرف بوقاحة مع عقبة، حين ثارت عصبيته، وراح يهتز من الغضب، فهجم عليه ونطحه برأسه نطحة قوية، فكان كمن يصطدم بالجدار، ولأن الناس اجتمعت عليهم، من الصراخ فقد أمرهم الفنان بالدخول إلى المطعم، فانسلوا خائبين، بينما ظل عمار يصرخ ويشتم ويتحداهم جميعا، ولكي يداري الفنان خيبته أمام الجمع الغفير الذي اجتمع من حولهم، فقد صار يأمر بوقار:

-: يا عقبة ادخل إلى محلك..

أجابه عقبة متحديا: سأدخل محلي حين تدخل أنت أولا، مثلي مثلك..

حين زرته في نفس المساء، وجدته مخمورا، ومنتشيا حين قال:

-: أين أنت يا معلم..لقد تأخرت كثيرا..بالفعل فأنت على حق حين تقول بأن الدنيا مجرد حظ وصدفة.. لقد حصلت على زجاجة ويسكي فاخر جدا، لم أستطع مقاومة إغراءه، وقد شربت نصفها، واحتفظت بالباقي

حتى تحضر.. هيا اشرب لنتساوى وبعد ذلك سنبحث عن مكان آخر..

تم الأمر سريعا ، ثم انطلقنا نحو مرحلة أخرى، إلى النهر كالعادة، حيث الهدوء والسكينة، والفضاء الواسع، تيار النهر، أنسامه اللطيفة وخفقان الماء وصوت ارتطامه بالأعمدة، والأضواء التي تتلألأ على مرايا النهر، والنجوم المشعشعة بالسماء، وظلال أشجار الغرب والحور.

قال بانفعال ظاهر

- أرأيت؟.. لا اصدق أبدا أن الشيخ ومريديه، الشيخ الساحر والمشعوذ، الذي جمع أمواله من الحجب والرقى، يتصرف معي بطريقة أرقى بكثير من شخص فنان، وكأنك تشاهد أحد الأفلام الهندية..

- لا تحلق بعيدا يا عمار، فالفنان صديق طفولتي، وأنا أعرفه جيدا، لقد صار مشعوذا هو الآخر، بسبب فشله الفظيع في العمل التجاري، لقد فقد السيطرة على نفسه، أو قل فنان أصابه عمى الألوان..

- أنت لم تر شيئا.. لقد تصرف معي وكأنه زعيم عصابة.. مع الأسف..

- كفاك نكدا، لقد جئت به إليك معتذرا، وماذا بعد؟!..

هز رأسه موافقا، ضحك كعادته، وبعد أن وضع يده على صدره، راح يغب من الكأس بعصبية ظاهرة، ثم قدم لي سيجارة فقبلتها مرغما وهو يقسم ويحلف أغلظ الأيمان، ثم زاد عيار كأسي وخلخله بالثلج بدلا من الماء، وراح يلح علي بلجاجة

- عليك أن تأكل.. كل شيئا.. تعشى.. هذا.. هذه.. الأخيرة.

وفجأة قال لي بشكل مفاجئ

- هل تعلم بأنني أفكر بالهجرة إلى مدينة أخرى أرحم من هذه المدينة الحقيرة.. لقد أخطأت حين عدت إلى أهلي، لقد عشت في أكثر من مدينة وكنت سعيدا بالحياة فيها، ألهو وأمرح، إلا هنا.. لا يوجد سوى الهم والغم..

قلت له مشجعا:

-: لا شيء سيبقى على حاله، كل شيء سيتغير، فلابد أن يبتسم الحظ ذات مرة، أو لابد من الصدفة السعيدة، كن متفائلا أيها البطل، فأنت أقوى من كل هذه الظروف..

عرم منتشيا، انفرج وجهه عن ابتسامة محبطة، أرخى جسده المتشنج من الغضب الخفي على هؤلاء الأوغاد، الذين عكروا صفو حياته، ركز قليلا ثم قال:

-: أقسم باللّه، وكل كلمة عليها اللّه، لست يائسا من هؤلاء الناس الغرباء، ولكنني مندهش غاية الاندهاش من سقوط أقرب الناس إلينا، فنحن لا نحب بعضنا البعض، والعكس صحيح فقد بذرت فيما بيننا بذور الكراهية والأنانية.. نحن نحب الغريب لأننا لا نعرف له سوابق، فالغريب يتسلل بكل سهولة إلى حياتنا الخاصة وحتى الشخصية، يسكن بين ضلوعنا.. قد يكون هذا من حقه، ولكن أليس من حقنا وواجبنا أن نحترم بعضنا على الأقل؟!.. لست ضد أي غريب يعيش بيننا أبدا، فنحن جميعا بشر سواء، وإنني أقصد

بالضبط ذلك الغريب المخرب لبيئتنا المحلية والذي يستغل ويخرب.. لم تعد المحبة موجودة بين الأخوة..

-: ما لسبب في رأيك؟

كان السؤال سهلا فأجاب بكل ثقة:

-: المحبة لا توجد بين الأخوة.. لماذا؟... السبب هو الأم.. نعم الأم.. الأم هي تسبب التفرقة بين الأخوة..هي التي تميز بينهم فلا توزع محبتها بشكل عادل على أبنائها وأحفادها، ثم تفضل أحدهم على الآخر..

-: والأب يا صديقي..

-: عندما كان والدي على قيد الحياة لم أخوتي متفرقين أبدا، كانوا متضامنين ومتكافلين..

كان عقبة كتلة عصبية متيبسة، فهو إما منكسر، أو لين كخيط ناعم، طوله أكثر بقليل من متر ونصف، ووزنه لا يتعدى خمسة وخمسين كيلو غرام، نحيف وأسمر البشرة، عيونه السوداء محاطة برموش كحيلة، فإذا راق كان كالقط الوديع، أما حين يغضب فانه يظهر كشبل جائع ومفترس..انه يخاف حتى من نفسه..

ذكرته بما سبق وأن اتفقنا عليه:

-: يا عقبة ألم نقل لنضع الأم خارج كل المعادلات.. فالأم أكبر من أن يحاسبها أحد أبنائها..أم لا؟!..

رد معتذرا

-: لا أقصد العودة ثانية، نعم أنت محق،ولكن الناس هم من أخبرني بالتمييز الذي تمارسه على أحفادها، يقولون أنها تفرق بين بينهم بغير حق..

-: لا تصدق كل ما تسمعه يا عقبة..

-: نعم، ولكنني لن أغفر لأخي الأكبر أنانيته، فقد حاز على كل شيء وترك لنا الفتات لنتقاتل عليه كالوحوش الضارية، وهو يتفرج علينا ولا شفقة أو رحمة في قلبه.. انه يتمنى هلاكنا جميعا..

(٧)

ذات مساء عاد عقبة من السهرة مبكرا، قطع سهرته مع ثلة من الشباب، لأن شيئا من روح التحدي

وعرض العضلات، سرت بين السهارى، وبرز من يقول: أنا أستطيع شرب الزجاجة كاملة العرق، حتى امتلأت الطاولة بكميات مضاعفة، لم يعجبه ذلك الموقف، وقبل أن يقف مغادرا، قال لهم باستهزاء:

- إنكم تتصرفون كأولاد صغار.. وعيب على مثلي أن يضيع وقته معكم..

رغم علو أصواتهم المنفردة، فكل واحد منهم بدا وكأنه يسهر لوحده، ليس مع غيره بل مع نفسه فقط، ولا يستقبل من الحوار والكلمات إلا ما يعنيه هو بنفسه، فقد علق أحدهم بصوت مرتفع:

- أين أنت ذاهب يا خال.. لا تخف إنهم لا يقصدونك أنت.. سينتهي الرهان ونتعشى..

ضحك كطفل صغير ثم قال بهزأ

– لا أنا خائف.. لقد شبعت..

حين خرج لم يكن ثملا، ولكن رائحة الخمر النفاذة، لن تخفى على الأنوف الحساسة، ولم يكن يدري أن مفاجأة ستكون بانتظاره، كان يقول لنفسه (لن أجد وقتا خيرا من هذا الوقت، لأجده في بيته، ففي

صباح الغد ثم دين ينبغي أن يدفع لأصحابه، فأنا كفيله فلم ورطت نفسي مع الناس؟!. ومثل هذا الفصل لابد أن يعيد نفسه في كل نهاية شهر حيث يستحق الدفع، لقد بقي القليل وينتهي الدين، فهل سأخسر هؤلاء الناس؟!..).

كان يسكن في عمارة قريبة من محله القديم، منظرها موحش، كانت كتلة من الاسمنت، ولا يوجد أي شجرة، أو نبتة مخضرة حول العمارة، فكل الكوى والنوافذ مغلقة ليلا ونهارا، كما أن الشارع مظلم ولا يوجد فيه أي مصباح ينير الطريق، وقف على الرصيف المقابل، وشرح ينادي بصوت مرتفع، ولا أحد يجيب، وفي لحظة ما انفتح الباب من خلفه، وخرجت بنت صغيرة قالت له:

- عمو عقبة، لا يوجد أحد بالعمارة، سافروا..

- أين؟.. هل رأيتهم يا بنتي؟..

-: لا عمو عمار، ولكنهم ليسوا هنا..

قال في سره (والله، هم هنا ولكن لا يردون أبدا.. ليتق المرء شر من أحسن إليه..).

كـان سـاهما يفكـر بـالعودة إلى دكانـه المغلـق، فالساعة تقترب من منتصف الليل، والليل طويل، حين سألته:

- عمـو عقبـة.. أعنـدك جـوال؟ أريـد أن أكلـم صديقتي..

بكل أريحية رد: هاهو يا بنيتي..

عاد يصيح من جديد، ولا أحد يرد، كانت الطفلة قد أدخلت الجوال معها إلى المنزل، وحين يأس من رد أحدهم، استدار نحو المنزل بحثا عن جواله، وعند عتبة الباب، كان خال الطفلة قد وجده واقفا في وضع يثير الشبهة، فشعر بالاستفزاز، فقال له بحنق ظاهر:

-: ما لذي تفعله هنا؟!..ماذا تريد؟!..

لم يدر بخلد عقبة، أن خال الطفلة كان قد طاش صوابه، ولم يرتبك أبدا، بل رد بكل هدوء:

-: لا شيء أريد جوالي.. لقد استعارته الطفلة مني للتحدث مع صديقتها..

اندفع خال الطفلة بشكل جنوني فأحضر الجوال، وبدلا من أن يضعه في يد عمار، مع الشكر وفق ما كان يتصوره، فقد قذفه بشكل أعمى على وجه عمار، فانفلق على جبهته، فانفجر نزيف الدم من رأسه المشجوج، وتطايرت قطع الجوال متناثرة على الطري، ثم أغلق الباب، وارتفع صراخ الطفلة من الضرب الموجع، شعر عمار بارتجاج مزلزل في رأسه، من ضربة موجعة كطلقة رصاص لم تقتله بعد، تماسك من الصدمة الرهيبة، وانسل مترنحا، يحاول الاتزان، والسير نحو المستشفى، كان الطريق خاليا من المارة، لذلك شرع يستريح من حين لآخر، يعتصر ألمه، ثم يشتد عزمه فيواصل السير مكرها، كان يشعر بأنه قد عينه اليسرى قد عميت، لأن جفونه بدأت تتورم، تألم كثيرا، وعانى، إلى أن وصل المستشفى، وهناك وجد نفسه بين الحالات البسيطة والتي لا تستحق القلق، لقد كان مقر الإسعاف السريع يضج بصرخات الألم الموجعة، فلم يكن جرحه يثير حتى فضول الممرضين، حتى أن أحدهم علق متسائلا:

- هذه ليست من أثر الوقوع في حفر الطريق.. لقد اصطدمت بجذع شجرة.. أليس كذلك ؟..

ضحك هذه المرة مسترخيا بدون عصبية، لأنه لا يقدر أن يفعل ذلك، ومع ذلك تمالك نفسه ثم قال: لقد اصطدمت بدب متوحش.

جلس يستريح قليلا في صالة المشفى، يستجمع قواه النفسية والعضلية، لم يكن يتمنى رؤية أحد من المعارف، لأنه لن يقوى على الشرح والتبرير، كيف حدث له هذا، وأين؟ ومتى؟ ومن وهو؟.. فالناس هنا لن يعنيهم سوى تناقل الأخبار السيئة، وتلفيقها ثم بثها مضخمة، والآن هو بدون جواله الشخصي، ولن يستطيع الاتصال بأي صديق، ويتوجب عليه رغم الصداع الشديد أن يفكر، بل ويفكر بحكمة، ماذا سيفعل الآن لمواجهة التداعيات المقبلة، في الأيام القادمة، فنحن في مجتمع لا يرحم أبدا، والناس فيه تحرض دائما، تستفز الطرفين المتنازعين، ولو لأسباب تافهة، أو من سوء التفاهم، لتنشب بينهم نارا للثار والانتقام، بسبب الحياة القاسية

التي نعيشها جميعا ، ولأن الناس هنا يحقدون حتى على أنفسهم.

كان يشعر بالزمن يدوس عليه ، يسحقه ، حتى أن الليلة بدت طويلة بلا نهاية ، ليلة مركبة بشكل عجيب ، ليلة ممسوخة ، كان فيها يضحك ويلهو مع هؤلاء الشبان السذج ، حول مائدة عامرة بالمشروبات والمقبلات لمازات الشهية ، حين خرج في ذلك الزمن القديم ، كان يقول لهم ساخرا :

- صحيح أن الولد ولد ، وعليه لن يعمر البلد..

ما الذي استفاد من جدية الكبار؟!.. لم يعمر شيء و بل لقد تهدم رأسه ، من ضربة عمياء ولئيمة ، من ذلك الهمجي وبسبب من؟!.. بسبب طفلة (عجية) شقية ، أرادت أن تلهو مع صديقة لها ، ولكن من يدري كيف سيفكر مثل هؤلاء الجبناء؟.. لابد من الاحتياط وتقديم شكوى في قسم الشرطة ، لئلا يجد نفسه أمام المثل الذي يردده بل ويعمل به الناس هنا كثيرا :

- ضربني وبكى ثم سبقني واشتكى.

بعد أن قدم شكواه بصعوبة بالغة، وأسقط حقه في ذات الوقت، عاد إلى البيت آخر الليل، وهناك احتضن أطفاله الصغار، كان يشعر بأن الموت قريب منه، كان يشعر نحوهم بعطف شديد، وخوف حقيقي، خوف من يغادرهم وهم صغار في مدينة أصبحت كغابة وحشية ولا ترحم أحدا أبدا، مدينة بلا قلب فمن أين لها أن تعرف الحب، وهو حين سيموت سيبقى مجرد ذكرى سرعان ما تزول وتختفي، ولذلك قرر في نفسه إن عاش هذه المرة، وبقي على قيد الحياة، فبمجرد أن يزول الورم، وترمم جروح وجهه، فليت الندب يكون صغيرا، ولا يترك أثرا كبيرا، عندها سيتوجه مع أطفاله الصغار لأخذ صورة تذكارية كبيرة، يكون فيها ظاهرا وسط أطفاله، ليبقى كذكرى تدوم زمنا طويلا، وكان يقول لنفسه، سيكون بمقدور أولادي أن يشيروا إلى الصورة ويقولوا بكل فرح وثقة

:- انظروا إلى هذه الصورة... هذا هو أبونا..

هذا ما حدث بالفعل، بعد أن أقفل كل شيء بوجهه، لم يعد يحتمل، فقد أقفل قلب عقبة ذات ليل

خريفي بارد، وغادر الحياة، فلم يبق منه سوى صورته الأبوية الحانية بين أطفاله الصغار، كانت الصورة معبرة حقا، ودقيقة في تعابيرها، ففي وجهه الطفولي الباسم، كان هناك خوف وقلق عظيم على مصيرهم، ورغبة خفية بأن يحدث قدر آخر وصدف كثيرة بل وحظ، لقد مضى في صمت كبير، ومما خفف من وطأة موته وثقل ذكراه على قلبي، هو في ما فعلته أمه صعقت بوفاته، وقررت احتضان أولاده في بيتها.

كنت بين يوم وآخر أزور قبره مخمورا، أحادثه بصمت، فأراه كما كان في الصورة يرقد هانئ البال مطمئنا، وكان كان يعرف كل شيء، وكنت أتذكر بصعوبة كلماته الغاضبة: لم تعد المحبة موجودة بين الأخوة، الأم هي السبب.. الأم التي تفرق بين الأبناء.. نحن لا نحب بعضنا بعضا، الغرباء يتسللون بكل خفة إلى دواخلنا، وان لهم الحق في ذلك، لكن الأحق أن نحترم نحن بعضنا الآخر، يجب أن نمنع التسلل المخرب للبيئة المحلية، من الغريب الذي يستغلنا ويسخر منا.

(١٥)

كم مرت تساءلت مع نفسي، السؤال التالي: لماذا يراودني شعور عميق، وبأنني كلما حاولت الاقتراب من الواقع إلا وظهرت صورته على نحو حالم، وكأنني أرسم لوحة بديلة عنه، أو حتى أزينه كما يحلو لي، فلا يبدو كما هو عليه تماما، وإنما كما ارغب أن يكون وفقا لأهوائي.؟!. هل هذا صحيح؟!.

إذا كانت تلك أسوار وقيود، بل وحدود واقعي، وهو انعكاس لما أراه من خلال عدساتي الخاصة، فليكن، فسأظل أحاول التكيف معه، أو الإمساك به وهو ينزلق من بين أصابعي بيسر، تخنقني تلك الشروط المحيطة بي، فتصنع مني شخصا يناقض نفسه، بل ويخاصمها بغير سبب مقبول، فتعدد الرقباء ابتداء مني وحتى الرقيب الحقيقي، وتعدد مستويات الرقابة الذاتية والداخلية والخارجية، لست حرا حين أفكر وهذا أمر يصعب التعايش معه، كما حال من يكون متعدد

الزوجات، حيث لن يستقر له قرار، طالما هو على قيد الحياة، ولكنني لم أتزوج بعد وربما صرت عنه ابعد ما يكون.

وقبل أن أقع في جزيرة السند باد، حيث توجد جيف كثيرة متفسخة، في كل القمم الهشة مثل كثبان الصحاري ولكن بدون نقاء، فهناك فرق أكيد بين صفاء النهر الرقراق، ونتانة المستنقع الراكد، فالسماء هي السماء، والنسور كذلك، ولكن سماء جزيرتي عافتها حتى النسور، وكأنها حكمت على الجيف من حولي بأنها أجيف من كل الجيف، ولكن ما أتأمله من مرورها العابر، أن أتعلق بمخالبها لتطير بي بعيدا ولأطوح بنفسي فوق نهر أو بحر أو حتى على قمة أخرى فيها النزر اليسير من الحياة، هو في البحث عن صدفة أو ضربة حظ لا تكون عاثرة ولو لمرة واحدة، وقد تكون الأخيرة، وهكذا كنت قد قررت بشكل نهائي وحاسم، وحيث لم أجد أي وسيلة للطيران وحتى القفز فوق الواقع، ولو كان ذلك بالوهم أو بالخيال، لذا فقد آمنت بالإحباط واليأس على أنهما قدري الأكيد، لذا

فقد صرت أعيش، أو أموت، داخل برزخ مستنقعي كما تعيش بعض النباتات اللا هوائية، حيث الحياة أو الموت ممكنان بغير أكسجين.

يستهويني الخيال أكثر من الواقع، فالخيال بالنسبة لي خير ملاذ، فهو يضمني أو يشر نقني كلؤلؤة في صدفة، يهدهدني أثناء نومي ويخلصني لحظة فلحظة، من ربقة الواقع البائس، وهو واقع شديد الإلحاح، فيه لجاجة لا أقدر على مسايرتها، أو الرضوخ لمتطلباتها، لأن الحياة نبذتني بقوة طاردة، نحو التعاسة التي صارت مثل عقوبة أبدية، فلم يعد يخلصني التوسل والاستعطاف، كما لم يعد لأي محاولة أتمرد فيها على الواقع، أي صدى يذكر، ولذا صرت استغرب من نفسي عدة أشياء، ليس أقلها، كيف لمثلي أن يكون على قيد الحياة، ولو بأدنى الدرجات، وكيف لم أكن ميتا منذ أمد بعيد، وبما أن ذلك لم يحدث حقا، مثلي كمثل أي شقي يبقى شاهدا على أن الحياة، تنتقم من الأشقياء، بعكس ما يتصوره السعداء، لأنه سيعيش لحظات ولحظات، سيبقى ليتعذب أكثر فأكثر، بدون حظ أو

حتى صدفة، لأنه سيحرم من لهنيهات الشعور بالهناء، وكأن الحياة ذلك الكائن الحي الذي يعرف بدوره حالات الثأر والانتقام، كيف لم أتعاطى المخدرات الطريق الأسهل نحو الموت، وكما يقال (البني آدم طير ويحسد الطير)، فهل سأحسد هؤلاء الناس على تعاطيهم لتلك السموم القاتلة لمجرد أنهم سيموتون منها سريعا، إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم أفكر بالانتحار ذاته كوسيلة فردية لن تؤذي أحدا غيري، وهو ما سيخلصني من العذاب المحدق بي، ربما أنا لست سوى كذاب غير ظريف، ومعجب بقدرتي على خداع نفسي، ولو كنت صادقا لكتبت بعض فصول مأساتي الوهمية، وليكن وأنا أتساءل ثانية، كيف لم يكتشفني الإرهاب، كيف لم أتحول إلى إرهابي حقيقي، إلى شخص دموي وعنيف، ليعرف الآخرين أن احتقارهم، وإهمالهم الشرس وتهميشهم لي أو لأتفه مخلوق، سيجر عليهم الويلات والكوارث، (علي وعلى أعدائي يا رب)، ها أنا ذا أكذب على نفسي مرة أخرى، فأنا لا أومن بأي شيء، ولا أقدس أي صنم كان، فالأجداد ليسوا بالنسبة آلهة

تعبد ، أو حتى تطاع، فالحياة تتغير باستمرار، ولن أنظر بإعجاب إلى تراثهم وتاريخهم بل وحتى عاداتهم المجهدة، فالزمن بنفسه قد محا كل نسبة أو تناسب بينهم وبين إشكال التكيف السائدة هذا اليوم، فان كانت مكارم الأخلاق شبه غاية، فهي ليست وصفة جاهزة وصالحة بالمطلق لكل زمان ومكان، وقد يكون من المعقول إن يمسك الميت بالحي، مثل أساسات البناء الذي نسكن فوقه، فما هو نادر الوجود ليس كما هو شائع ومتاح، أنا عندي ميزان خاص وعام، وميزاني هو الذي يقترح علي ما لذي سأحمله أو أتحمله، لست عبثيا إلى درجة العدم، كما أني لست منقاد ا كالأعمى نحو الهلاك الأكيد، والحكمة كالعلم تماما حين يقال عنه (سلاح ذو حدين).

ذات مرة أراد أبي أن يزوجني وكنت شابا صغيرا في مقتبل الرجولة، وهو بذلك يريد أن يقف عقبة في طريق اختياري البسيط، وهو اختيار يتناسب مع رغبتي بالزواج المتواضع، فالأمر عندي عادي، ولا أحيطه بتلك الهالات الكاذبة من الفرح والعرس، والنفقات الزائفة التي لا

معنى لها، فلست على استعداد لتحمل كم كبير من التهريج، ليقال في الأخير بشكل تعسفي: كان عرسا تاريخيا.

المسألة اتضحت أخيرا، وتبين لي أن والدي مجرد ضحية للفهم الساذج الذي ينتج عن حشو الرؤوس بالحكم الجاهزة، المفارقة لتيار الحياة، التي يصعب مجارة تيارها الجارف، بينما تحاول تصبيرها كحيوان خرافي مغمور في متحف زواره من الغرباء.

القصة الشعبية: اسمع هذه الحكمة يا بني:يحكى أن شيخا كان له عشرة من الأبناء، وكان كل واحد منهم أفرس وأقوى من الآخر، وكان لهم حي منيع، فهم قوة على الحق، وجارهم عزيز وهم سيف مسلط على الباطل، وذات يوم أراد تزويج أحدهم، فأرسلهم جميعا إلى الشيخ الفلاني، ليخطبوا لأخيهم، ومثل هؤلاء الفرسان يحفظون الوصايا عن ظهر قلب، فعلى متن خيولهم التي تسابق الريح انطلقوا.

من بقي بالخيمة أو المضافة؟.. بقي الشيخ وبعض الخدم والنساء والعجزة، حين حلت على الخيمة ضيوف

ومـن العـار أن نـسميهم بالـضيوف، فهـم مجـرد (شـرطة سلطة)، لا يعرفـون قيمـة الواجـب، أو حتـى معنـى كـرم الضيافة، وكما جرت العادة، فقد ذبح الشيخ إكراما لهـم فأقـام وليمـة كـبيرة، تليـق بأكـابر القـوم، بينمـا كانوا ينظرون بعيون ساخرة إلى الموائد على أنها مجـرد تبذير، أو إنفاق مبالغ بـه، وفي غير محلـه، وزاد في غيهم أن يـروا تلـك البـساطة والأريحيـة في التعامـل معهـم، ممـا سمح لمتقدم بالرتبة (جنفصان) أن يمازح الشيخ إلى درجة القبض على لحيته، وتوجيه اهانة لـه، فأسـرها الـشيخ في نفسه، فهو الضيف في خيمته بل ورب المنزل، حتـى ارتفـع الضجيج وحدثت زوبعة كبيرة عند مقدم الفرسان، مـع صهيل خيولهم، وحـين دخلـوا بأجنـدتهم وأسـلحتهم، صـار المكان مهيبا، فالكل يقبل يد الأب، ويجلس متأدبا، ولا يتكلم حتى يؤذن له.

توجه الشيخ بالسؤال إلى كبير أبنائه:

-: يا عقاب، علوم الخير..

رد عقاب بكل انتباه:

– كل الخير يا أبي، لقد وجدنا الشيخ على أحسن من السمعة والصورة، بينما ابنته كالنقش الذي يزين السورة وقد أحسنوا ضيافتنا وأفاضوا، وقد شرط لنا مهرا مقداره مئة من حمر النوق، وبما يليق بالمقام.

قال الشيخ وقد انفرجت أساريره عن علامات الرضا:

-: يوم مبارك، إذا تجهزون المهر خلال أيام وتعدون العدة للعودة..

لم يستطع (الجنفصان) قائد ثلة الشرطة من كظم غيظه فقال:

- هذا المهر غال يا شيخ..

رد عليه الشيخ بكلمات نارية يقدح منها الشرر:

-: مهر أمك هو الرخيص، فلو كان مهر أمك غاليا، لما تجرأت على العبث بلحية من يستضيفك..

لو أن الأرض تميد وتخسف به، لكان حاله أفضل من رؤية تلك العيون المحدقة به وهي تحمر غضبا،

وبإشارة واحدة من الشيخ، ستقطعه إربا إربا ، وخرجت الشلة بأسرع ما يكون ومن غير طرد.

وجاء يوم ذهب فيه والدي بنفسه مع أخوتي، بحثا عن شخص له ابنة وحيدة، وكان أبي يتباهى بالصداقة التي تربطنا بهم من جده ووالده، وأبعد من ذلك، وعاد إلينا وقد خطب لي قمر الزمان، وقد عقد لها مهرا بمئات الألوف مقدما ، وبعدة ملايين مؤخرا ، الأمر الذي جعلني أشعر بالخوف، وبت أتخيل نفسي من الرعب، وكأنني طفلة صغيرة يدفنها الأب بالجاهلية في حفرة عميقة من رمال الصحراء، خوفا من العار.

وتبين فيما بعد ، أن والدي كان قد اشترى العار نفسه بثمن غال، وكان قد أحسن الدخول، فلم يعد يعرف كيف يحسن الخروج، أما البنت فحدث عن الرذيلة بلا حرج، وأما أبوها الذي كان بعيدا عن الأنظار ومتخفيا ، فقد تبين أنه كتلة من الخبث والخديعة، وأطمع من الطمع، فلم نتخلص من آثار تلك الحكمة الجميلة بسهولة، فاهتز منها كيان أبي،

ولكنها لم تكن كافية لتربيه تربية واقعية، ولو فكرت في لحظة ما بالتعليق عليه ساخرا:

- مهر أمك رخيص.. في المهر الرخيص لن يموت الآباء والأجداد..

فهل سيهتز بدنه مسموما، أم سيلجأ إلى تجاهل سماع كلماتي، بل ووجودي نفسه.؟..إنني واثق من قوته المعنوية، وجوهره الصوفي الذي وان كان قد تلوث بشهوة التملك، وحب التعبير عن نفسه عن طريقها، فهو في عمقه الأصيل له أكبر وأكبر من هذا الواقع المحيط بنا كمحيط ثائر بهمجية بالغة، فليحصد ثمار تسميته لي (ثائر) وما استجابته الواقعية لما يحدث بالواقع من حولنا سوى وهم يتطلب من ذوي الحس السليم أن يستجيبوا له، وهو دليل مرونتهم بل وحيويتهم بالطوفان فوق الواقع المترجرج، فهو يسايره ولكنه لن يصمد حين يصطدم بالجبال الأوتاد.

الفصل الأخير

(١)

لقد أصبحت مدمنا على شرب الكحول، لم يبق أحد إلا ويعرف ذلك، إنني أشرب العرق السوري، ليس لأنه الأرخص فحسب، بل لأنه المشروب الشعبي، ومع ذلك فانه يصعب علي كثيرا تأمين حاجتي القليلة منه بشكل يومي، لا يمكنني أن أتفاعل مع أحلامي وأوهامي بدون شرب كمية كافية منه، ولطالما كانت الحرية مقدسة، العيش بحرية بل وتصور وهم الحرية وكأنها جنة، الجنة هروبا من جحيم حياتي في كل صباح، الجنة ألغابه والمظلمة ذات الظلال الخلابة، والأحلام النقية الطاهرة، ومما لا يوجد أبدا على ظهر هذه الأرض النادرة الوجود، ومنذ ملايين السنين.

أنا أريد أن أعيش وليس أن أكون موجودا فحسب، ولا يمكنني أن لا أكون حرا حتى بالوهم، فهو الإمكانية الوحيدة المتاحة لي اليوم، وعن طريق شرب الخمر سأنطلق بعيدا خارج إحداثيات وجودي الراهنة، أي خارج سجني الفظيع، وهو سجن دمرني، بل ودمر حياتي بأسرها، لقد حرمني من كل شيء، نعم من كل شيء، فالناس من حولي يعيشون، كيفما كان الحال يعيشون، يقبلون أو يرفضون، يتنازعون أو يتفقون، بينما أنا لا أمتلك شيئا قليلا من معطيات وجودهم المتواضعة للغاية.

نحن على أبواب الخريف، فالجو مازال حارا، والشمس ساطعة بل وحارة إلى حد لا يطاق وعندي ثمن العرق البائس لأكثر من ليلة، بعيدا عن سلطة الفواتير، ففاتورة الكهرباء باهظة الثمن، والهاتف مع تجاهل تام لفاتورة الماء، لقد نامت تلك الوحوش إلى حين، ويمكنني أن أنام هادئ البال ريثما تستيقظ تلك الوحوش الكاسرة.

أنا في سوق الخضار والفاكهة، ويدهشني أن يكون العنب العظيم هو أرخص فاكهة في هذا الموسم، العنب قرين الحضارات العظيمة، وأجمل لحظات حياتها وموتها المشرق، لذا شعرت بأنني يجب علي أن أفعل شيئا ما، وكأنها فرصة لن تعوض بالنسبة لي، فصناديق العنب المعروض توشك على التخمر، من الشمس الحارة.

ما لعمل؟.. لاشيء غير العمل، فالعمل يسبق التفكير، إنهما متلازمان قطعا، والعمل مع الخطأ خير من فوات الأوان مع التفكير الصحيح، ولا أدري كيف قررت للمرة الأولى بشكل يكاد يكون صحيحا، فقد تحول فريق العنب المختمر وغير القابل للبيع إلى مجرد خدم لنقودي القليلة، وعلى سطح المنزل، نقلت صناديق الخمر المختمر والفاسد حسب رأيهم، ووحدي أجل لوحدي شرعت أعصر وأهصر، ثم أصب العصير في بقايا زجاجات عرق رخيصة، وفي أواني مخصصة للمازوت حين يثور الشتاء ببرده القار، ونحن في فترة الغضب الصيفي الجهنمي، حيث لن يصدق أحد مطلقا بقدوم

شتاء قارص، شتاء تجمد دفيه كل أعضاء البشر، بل وتموت الحياة..

عصرت العنب حتى لم اقدر، سأنجح حقا ولكن ليس بدون مواظبة ومثابر ة، من أجل أن يتحول الحلم إلى حقيقة، وببعض الصبر صنعت شيئا مما أريد.

كانت تلك هي المرة الأولى وحقا هي الأولى، حين خمرت العنب، وحاولت نسيانه لعدة أشهر، سأستعد لعيد رأس السنة الميلادية، أليس غريبا أن أعيش بانتظار قدوم رأس السنة، وأنا خائف التي تلك المناسبة العزيزة على قلبي بدون خمر..سأضحي ببعض الحياة ولعدة أيام، يجب أن أعيش على طريقتي الخاصة وكما أحب وأشتهي، كانت رائحة التخمر وقبل إغلاقها مثير، فلم أعد مهتما بما يمكن أن تثيره من الفضول، ومما قد يعتبره كثير من الناس فضيحة يتناقلون الحديث عنها كما لو كانت عارا يلحق بالشخص حين يعمل ذلك، لقد قررت وأنا حر أن أفعل ما أريده،فأنا محتاج للخمر الذي سأصنعه بنفسي، دون أن أمد يدي إليهم سائلا، فهم أنفسهم من علمني الحكمة المتعفنة، التي تقول: في

هذا الزمن لا أحد يساعد أحد ، فلو أنهم قالوا : لا أحد يشعر بوجود الآخر لكان ذلك أوضح تعبير..، لكل قدره وقضائه، وصدفة لوجوده، لذلك قررت أن لا أقلدهم، سأعتبر نفسي منذ اليوم حارس مقبرة، فإذا كان معظم الناس هنا قد شرعوا بملء خزانات المازوت استعدادا لشتاء يمكن أن يكون مريعا من البرد والكآبة والفقر..إنهم يبحثون عن الدفء الخارجي باحتراق المازوت في مدفأة، بينما الخمر تدفئة من الداخل، دفء للروح التي تبحث عن الدفء.. ولكن كم يوما أو شهرا سيكفي لتحقيق أمنيتي، لابد من البحث الدقيق، لقد وجدت ضالتي في رواية ألف ليلة وليلة ، فالخمر الساخن كما أعددته لن يكون قبل الليلة الخمسون وربما المائة ، ولكنني كنت ضعيفا ، ولذلك قررت أن أتذوق ما صنعته ذات صيف مضى، وبعد شهر ، كان الصيف قويا بما فيه الكفاية بحيث أسكرني بمبلغ بسيط، كان حلوا بل ورائعا فاق أروع أنواع الشمبانيا في لونه ورائحته وخفته الغازية والأهم بأنني للمرة الأولى أنجح في صنع خمري الذي سأشربه، ومن صنع يدي، لقد صنعت منه

ما يكفيني لتجاوز فصل الشتاء بأكمله.. شيء رائع جدا أن أخطط لفوضى حياتي القادمة.. خاصة وأنا موجود بالرغم عني في بر الأجلاف.. بر الصدفة النادرة، والحظ الحائر بل والعاثر بأكمامه.

لقد نجحت حقا، تغلبت على الشتاء الصحراوي القارص، و(المربعانية) اللعينة، حيث القحط الجاف، يجمد المياه في درجات تتراقص بشكل داعر حول درجات فوق الصفر، فالزجاج المحطم والملقى بطريقة بدائية، والنسيم الجاف والبارد يلي العظام، ويصنع النتوء البارزة، فتصبح الأطراف دموية تتألم من حر البرد.

حين تضيق روحي وتتألم من ضيق السجن في سفينة نوح وهي تتعلق كغيمة شاردة وسط السماء الزرقاء، أو تحس بآلام المسامير المدقوقة في جسدي المصلوب بطريقة فجة، سأبحث في تيه فظيع وسط الظلمات عن نور أو هاله لقمر لم يكتمل بعد، فقليلة أيام بدر التمام، وشمس الضحى، فلابد من حظ وقدر وحظوة.. اليوم وربما في أيام كثيرة قادمة، سأظل أبحث عن لحظات وجودي الضائع، عند ضفاف النهر.. نهر الفرات.

(٢)

نحـو الفـرات أمـضي، يوميـا بـدون هـدف.. لابـد مـن زيارة النهر، انه المتنفس الوحيد، فيبدأ العالم وينتهي في مصباته، مئات الأميال والنهـر العريق يرسـم أكثـر مـن علامة استفهام، حين يتدهدى بدون كبرياء مـن الشمال نحو الجنوب، وبانحراف البوصلة لم نعد نعرف الشمال الغربي من الجنوب الشرقي، حين أراه قادما كقطار فقد صخبه المعهود، في النهار والليل، في الليل نعم، في الليل يهدر بقوة هذه الأيام وكأنه ينعب كبوم منقرض على هذه البلاد، التي لم تعد شيئا، سوى أطلال وبقايا خرب في بر أجلاف، الجنوب أكثر خصبا من الشمال، أكثر اخضرارا، ما قيمة تلك السفوح التي تفصل الصحراء الشامية، وهـي صحراء شؤم ممتدة حتى اللانهاية في صحارى العالم التي تمتص دماء الحياة وترسخ الموت سبيلا لها.

تقع البلدة، بر الأجلاف على الضفة الشمالية، وفوق مرتفع طيني هو مجرد تراكم طيني من الطمي، وعبر مئات القرون، تراكمت ثورة النهر عشرات الأمتار من التسلق الوهمي، الحصى النهرية المخادعة تصنع واقعا جيولوجيا مخادعا،طبقات الحصى كالوهم يراكم نفسه فوق الوهم، مخادعة، أن أطل من بيتنا القديم فأرى النهر كبحر أو محيط، فالجسر القديم المتواضع والذي بني فوقه وبعد أن ينحسر فيضان النهر ويكف عن العربدة والهيجان، صار اليوم مجرد قناة تصريف لمياه آسنة، لقد انحسر النهر وتقلص، جفت عروقه وشرايينه وتقلصت،فلم يعد ذلك الوحش الكاسر، فانتهت للأبد قصة طوفان نوح، صارت البلدة وبر الأجلاف منفصلة عن النهر الهزيل، فالميل الفاصل بين بر الأجلاف والنهر، جفت العروق والشرايين..

لقد أصبحت كائنا شهيا أو شائي، من الشاي، المعتق بطريقة خاصة، عبر التخدر العريق فوق جمر الحطب المتلون من القرم المحترقة،والمعتقة، بحثا عن الحياة، الحياة العريقة، وقبل الموت القادم بهناءة.

حين وجدت أبو خزيمة شعرت بالأمان لأنه يعرفني حقا، ولذا صرت أتردد على نهر الفرات يوميا في الفجر وقبل أن تبزغ فجر شمس هذا اليوم الغريب، لقد كان يدمن الحياة تحت الجسر العتيق، ولعدة عقود، بما يوازي كل حياة الضياع التي عشناها معا، انه يعرفني برغم أ نني كنت أنسى كل شيء.

كانت علاقتي مع (أبو خزيمة) كعلاقة المريض بطبيبه الخاص، أتذكر ذلك حين أسير بالظلام، بين الفراغات الكبيرة والموحشة لأعمدة الجسر العتيق، وهي بالعشرات ومن مئات الأمتار، وسط صمت يبعث في النفس الخوف والرهبة، من المجهول الذي يمكنه أن يختفي بكل سهولة ويسر، وحين تجيء كلبته العرجاء، على حين غفلة، و أقترب من مكمنه ويزول شكي من إمكانية العثور عليه في كل فجر، ولا يكون ذلك إلا حين أشتم رائحة الشاي المخدر، وحين أرى شبحه الضخم يتحرك وسط الظلام بكل حيوية، وكان هو وقبل أن يراني يوزع نظرات غاضبة على كل شيء، لأنه يشعر بحقد خفي على كل الناس، لقد أتلفوا النهر بكل

بـــرودة عـــصبية، إنهـــم مخـــدرون ولا يـــشعرون بـــالخطر القادم، وكـأن شيئا لم يكـن، الـدنيا تـتغير نحـو الأسـوأ، ولا يحركـون ساكـنا. لم يفارق مخيلتي يومـا تلك الـصورة القاسـية عـن شخـصية الـصياد، لعلـها الـصورة الأكـثـر بشاعة مـن الجـزار، فمـا الفـرق بينهمـا؟ كنـت أتسـاءل مـع نفسـي أحيانـا، فـأقول لا يوجـد مـن هـو أبـشع مـن الـصياد، فتخيلـي للحظـة خروجـه للـصيد جـاهزا، حـاملا بندقيتـه المجرمة، لحظـة تبعـث الـروع بـالنفس البـشرية، مـن تـصور حيوانـات مـن كـل الأنـواع سـيتم ترويعهـا، ونثـر دمائهـا في كـل الـبراري والأحـراش والغابـات، مـن مختلـف أنـواع الطيور، والحيوانات البرية، فكما أني لست حريصا علـى الخنازير البرية العنيفة، بقدر خوفي على الغـزلان والطيـور، وكـل مـا هـو جميـل يحفـظ للبيئـة لـيس توازنهـا وتطورهـا فحسب، بل وبقاء ما هو أجمل يعيش فيها بحرية.

هذه الأيام اكتشفت عادة حميدة تتيح لـي أن أقضـي سـويعات هـدوء روحـي مفقـود، بـانفراد مـع النفس، بجـوار نهـر الفـرات، حيـث يوجـد في مكـان مـا جـسر قـديم، سطح بحيرة كبيرة حوله، ورغم أنها تقزمت قليلا، بفعل

السدود المانعة لتدفق بحر الفرات، فمن مساحة عدة كيلومترات مربعة، إلى مجرد كيلو متر مربع واحد بل وأقل، فقد أصبح نصف الجسر القديم الشمالي يحن الى عبور الماء من تحت أعمدته المهجورة والمنتصبة على الفراغ.

هناك بعد منتصف الجسر القديم، كنت أستلقي قبالة شمس الغروب وهي تصنع أنوارا ساحرة على سطح البحيرة التي صارت تخفق بهدوء، تصدر من حين آخر لمعانات فضية وملونة عند الغروب، بينما الطيور ترسم على صفحة سكك قطارتها الطائرة، متوترة، هاربة لا تقترب من البر، لتغص في عمق الجزر العائمة والغابية وسط المياه.

كان المكان يضج بالصيادين، وبالمراكب المعدنية، ذات المجاديف الخشبية، ومن حين لآخر ينطلق البعض في رحلة استكشاف أو صيد بالشباك، لم ألاحظ ما يجعلني أكره المكان الساحر، فليس هناك ضحايا أبدا، لأنني لم أبصر سمكة واحدة تصطاد؟.

كأن كل من هم حول البحيرة وبجانب الجسر، هم هناك لمجرد الاستمتاع بروح النهر، وظله، وبرودة أنسامه، بل ولسطوع مراياه مع الشمس الغاربة، وربما للتمتع بالسباحة المنعشة، أو حتى التأمل بهدوء لما يقوله النهر في خفقانه العتيق.

كبير الصيادين، صاحب(ألكار)، صاحب الرأي والمشورة، والذي يستمع إليه جميع الصيادين الصغار، لاحظ تعلقي بلحظات التجلي رفقة النهر، ولم أكن أعلم ذلك، لأنه هو الآخر كان يجلس مع المسنين، يصغي لهم غالبا، وقليلا ما يتحدث، ربما لأنه كان أصغرهم سنا وتجربة، شيء من الاحترام ربما؟ لست أدري؟.

الكأس التي أشرب منها الشاي المخدر على الحطب ألفراتي، تشبه كثيرا الكأس التي أشرب بها عرق كل ليلة مضت بغرابة مدهشة،وكعادته حين يصرخ متشاغلا:

-: هل استقبلتك الكلبة لايكا عند أول الجسر؟ اخدم نفسك بنفسك،سأراقب السنارات واحدة تلو

الأخرى.. لا يوجد صيد في هذا الشتاء.. كل شيء يرقد في سبات عميق، لكنني لن أفقد الأمل أبدا..

في الأيام الأخيرة، كان يلاحظ حالة النعاس التي تمر بي، ثم لا اقدر على مجاراته وهو يقول دائما:

-: أعرف أنك تثقل من المشروب، لم تعد تتحكم، يمكنك أن تغفوا قليلا ريثما تشرق الشمس ويشع الضياء،ومع النظر إلى كومة الحطب المتقدة،ونجمة القطب الشمالية، أنام بعمق فاشعر به حين يغطيني بعباءته،وحين أصحو مع ضوء النهار،أجده يعمل بكل حيوية، وهو يقول:

-: الآن ستشرب شايا حقيقيا، لقد تخدر بشكل تام..جهز سيجارتك..

حين أصحو أجد بالقرب مني الكلبة لايكا، وكأنها باتت تحرسني، أشعر بسرورها وهي تنظر إلي وقد صحوت من النوم العميق، أنا أشعر بقربها مني، لقد كانت تشبه امرأة ما لست أذكرها.

قال لي ذات يوم بأن سائقا متهورا وأعمى القلب والبصر، داس عليها بكل قسوة، بل قل أماتها ولحسن

الحظ كنت هناك وكان قد هرب في جنح الظلام، كانت الكلبة لايكا تبكي وتتألم مستنجدة بي، وقد قررت حينها أنه لابد من قطع رجلها بقسوة، فشعرت بأنها كانت موافقة على كل ما سأقوم به، وحينها قطعت رجلها وخيطت بطنها، ولا أدري ماذا فعلت، كيف عاشت وكيف أنقذت حياتها لا أحد يعرف كيف حصل ذلك، إنها اليوم عجوز مثلي، وعلى وشك الهلاك ولكنها مخلصة، لا أدري لماذا؟

كنا ثلاثة أنا والصياد والكلبة الرائعة لايكا، ولن أنسى أبدا رائحة الشاي المخدر ونجمة الشرق المتهادية، وكان كل شيء يتلاشى لحظة صحوتي.

(٣)

أشهر قليلة تفصل بين موتيهم، فقد مات أبو خزيمة بعد أن غاب عن ضفة النهر لعدة أيام، لا أدري لماذا كانت الكلبة حزينة؟ ومرتبكة وتبكي بصمت، إلى أن عرفت سر الخوف الذي يعتريها، لقد قرأت إعلان

وفاته ووقت دفنه فسرت مع الموكب، وكنت أتمنى أن أحضر معي الكلبة لتشهد لحظات دفنه، وعشت لحظات قلقة، ريثما حل ذاك المساء الثقيل، فاتجهت حزينا نحو ضفة النهر بحثا عن الكلبة لايكا، وفوجئت بها تعرف كل شيء، وربما كانت عائدة من زيارة قبره وفي جنح الظلام، وحين التصقت بي حضنتها بحنان، قبلتها، وهي تتشج بألم يقطع أوصالها، ابتعدت عني قليلا ثم راحت تنازع لحظات موت، ثم برد جسمها وكفت عن الحركة والتأوه، ماذا سأفعل بها؟. لقد ماتت حقا.. لن أحرقها لتتبخر في الأثير رمزا للوفاء، وأخيرا قررت أن ألقي بجثتها إلى النهر، فالنهر هو الحياة والتجدد، انه يمنحنا الحياة ولكنه لا يهتز لموتنا أبدا، فربما كأن هو الآخر ينازع الموت وهو يمر عبر بر الأجلاف، تعيسا ولكنه يكابر ويكابر.

الحكايات الثلاثة التي سمعتها منه، وكانت الكلبة لايكا تصغي إليه بانتباه بالغ، أصبحت ترافقني مابين المقبرة، وضفاف النهر، فذات ليلة ونحن نشرب الشاي المخدر قص علي حكاية النمر الذي كان يراه

الناس مثل أي قط هزيل ووديع، إلى درجة أنهم أجبروه على التصارع مع القطط السمان، لكي يجبروه على البقاء أو الموت، وحيث لا مكان للضعيف الهزيل، ومع التحدي المتواصل، وتعرضه لخطر الموت خمشا من القطط المتوحشة، انتفضت عروقه وانتفخت عضلاته، وبضربة من مخالبه الحادة شق بطن اكبر قط يعبث به ويخمشه من غير شفقة أو رحمة، فأرداه قتيلا، كيف حدث هذا؟..

حين سأله أحد الصحفيين قائلا: - أنت قط هزيل فكيف استطعت أن تردي خصمك السمين؟!.

أجابه: -أنا لست قطا هزيلا، أنا نمر يتضور جوعا.. إنها الظروف لتي حولتني إلى خروف، وحتى إلى قط مكسوف، بل وجهول الهوية وغير معروف.

كانت الكلبة لايكا تشعر بالاعتداد، وترفع رأسها، وكأنها نسيت نفسها وهي الكلبة العرجاء، وهي تنظر نحوي وكأنها تسأل هل أعجبتك القصة الحقيقية؟!.

في ليلة أخرى قص علي حكاية أخرى، عن عجوز برجوازي شديد الدهاء، في عصره، فقد كان يملك سعدانا يحلج له في كل ليلة كيسا من القطن، ففي كل ليلة يقدم للسعدان كمية من الموز والفستق، وبعد العشاء يشرع السعدان بتنقية القطن من البذور، وفي الصباح يرفع الكيس خاويا من البذور ليبيعه بثمن جزل، فيحقق بذلك فائض قيمة، وهكذا تمر الفصول، إلى أن يبدأ السعدان الشعور بروح التمرد على سيده، ويشرع بالتلكؤ والإبطاء، ولكنه لم يكن يعرف ما يريد، واستمر ذلك لعدة أيام، والعجوز يراه ويصبر عليه، حتى جاءت ليلة الأضحية بالكبش، كبش العيد، وهذا يحدث مرة واحدة بالسنة، وكان العجوز قد رباه وسمنه لمثل هذه اللحظة، كان العجوز عادة يذبح الكبش بعيدا عن السعدان، ولكنه أحضره هذه المرة ليشاهد بأم مشهد ذبح الكبش، لقد صرخ بوجه الكبش قائلا: قم واحلج القطن وإلا ذبحتك بهذه السكين..

نظر السعدان إلى الكبش، فوجده متمردا مثله ولا يرد على سيده،فشعر بالسعادة، لقد كان الكبش لا

يبالي بتهديدات العجوز وهو يقول له: - هيا إلى عملك.. قم بحلج القطن وإلا ذبحتك..

انقض العجوز على الكبش على من مرأى من السعدان فذبحه، وسال دمسه، ورآه وهو يرفس فصار السعدان يرتجف من الخوف، لقد ارتعدت أوصاله، وحين دفع إليه العجوز بعدة أكياس من القطن، راح مذعورا يحلجها، بسرعة تفوق إضعاف ما كان يفعله في الليلة الواحدة وظل يحلج في كل يوم أضعاف أضعاف فزاد دخل العجوز كثيرا بل وأصبح غنيا جدا ويملك الكثير من السعادين.

كانت الكلبة لايكا حين تسمع تلك القصة، تغمض عينيها، ولا يسمع لها صوتا، بل وتتجنب النظر إلى أحد، تصطنع التغافل لتبدو كأنها لم تفهم من القصة شيئا.

ذات ليلة قال لي، سأحدثك عن أهم درس تعلمته من كل حياتي الطويلة بالصيد على ضفاف النهر، وكان ذلك قبل خمس عقود من الزمن وتزيد، وحين تم بناء الجسر الجديد، فقد جاء إلى هذا المكان الذي نحن

عليه، مهندس ولكنه صياد ماهر، كنت أراقبه وهو يصطاد، فمن حين لآخر يفك صنارته عن سمكة بحجم الكف، ثم يعيدها إلى النهر ثانية، كنت مندهشا مما يفعله ذاك الرجل الكهل، فقد يمضي اليوم بأكمله وهو يفعل نفس الشيء، ثم يكتفي بسمكة تبدو كبيرة، وذات يوم وقفت وراءه، وقبل أن يعيد صيده إلى النهر، ربت على كتفه وقلت له: - ألق بصيدك هنا..

نظر إلي مستغربا، تكلم بكلام لم أفهمه أبدا، وحين ذلك لاحظ، شرع يلقي صيده حيث طلبت منه، فتجمع عندي عشرات الأسماك الصغيرة بحجم الأكف، فعدت بصيد وفير، تلك الليلة التي لن أنساها أبدا، لقد شبع أناس كثيرون من صيد ذاك اليوم، ومرت عدة أيام وأسابيع لم يعد فيها الصياد الكهل إلى نفس المكان على ضفاف النهر بجانب الجسر العتيق، عندها قررت بأن أذهب إلى الجسر الحديث البناء علي ألقاه هناك، وهذا ما حدث بالفعل، فحين رآني صرخ بقوة، حتى جاء أحدهم، عرفته وعرفني، كان يشتغل مترجما، وفوجئت به يقول عني بأنني إنسان شرير؟!.

كيف ذلك؟.. أنا لست كذلك..

قال المترجم بكل أمانة

: - بلى أنت كذلك هذا ما يقوله المهندس، وهو يقول بأنه يعرفك حق المعرفة..

قلت للمترجم -: باللّه عليك اسأله، لماذا أنا شرير؟!.

مرت فترة وهما يتحادثان، وأخيرا فهمت الدرس الذي لن أنساه أبدا ، أو ذات يوم من الأيام، حين قال لي المترجم، هل تذكر أنك أجبرته على إعطائك الأسماك الصغيرة، وهي بحجم الكف ولا تزن أكثر من نصف كيلو غرام من اللحم، وهي من المفروض أن تعود للنهر ثانية، لكي يصطادها أناس آخرون يأتون من بعدنا ، فليس من حقنا أن نأكل الأسماك الصغيرة؟..

قلت له -: نعم هو على حق، لقد فهمت، بل قل له أيضا أنني لن أقبل بصيد أي سمك صغير بعد اليوم، لأنه ليس من حقنا بل من حق أجيال بعدنا.

كان المهندس يبتسم، ويهز رأسه راضيا حين سمع كلام المترجم، ثم أهداني سمكة تزن عشرة كيلوغرامات، وحين عدت بها حدث نفس الشيء، لقد

شبع الكثير، بينما تغيرت أنا كثيرا.. لقد قررت أن لا أصطاد الأسماك الصغيرة، بل أعيدها إلى النهر، ليأتي فيما بعدنا جيلا آخر، سيصطادها ويتغذى عليها.

أذكر أنني قلت له: - نفس الشعور الذي تحس به، أحسست به بقوة مع صيادي الطيور الصغيرة، حين يصطادونها بالمئات والآلاف، لماذا؟.

قال على الفور: - هؤلاء هم الخنازير البرية، لولا أنها محرمة علينا.. إنهم يأكلون مالا يؤكل، ويشربون مالا يشرب، يتعلقون بالوهم، وهم الحياة، وكأنهم سيخلدون للأبد، نعم للأبد ولكن في الجحيم الآخر.